مجلة
روايات أحلام

عائدة الى سجنك

www.liilas.com
samra

مجلة روايات أحلام

عائدة إلى سجنك

«ليس هناك ما هو أسوأ من السجن إلا الزواج برجل مثلك».

لكن إليان لم تجد خياراً آخر من أجل تأمين سعادة ابن أختها المتوفاة، فقررت أن تخدع ارماندو كوريزيو حتى تحصل على ما تريده، وأعلنت استسلامها دون قيد أو شرط.

ولكن هل يترك ارماندو عصفورته الجميلة تطير من يده بعد أن دخلت سجنه الذهبي؟

www.liilas.com

سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ر.	المغرب ١٥د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ف.	تونس ١,٥د.	السودان
الكويت ٥٠٠ف.		٦٠٠ب.	العراق

samra

www.liilas.com

samra

١ ـ غريبان في مكتب

كان الازدحام شديداً بشكل غير عادي حينما اقتربت إليان من الطريق العام بسيارتها الهوندا. استطاعت من هذه المسافة رؤية البنايات المدثرة بغيوم بيضاء، كما استطاعت تأمل أشعة الشمس الخفيفة منعكسة فوق سطح نهر التايمز الذي يجري منساباً باتجاه مدينة لندن.

اقتضى منها إيقاف السيارة وقتاً طويلاً. وفيما هي تشق طريقها وسط المارة الذين يسيرون على الأرصفة قاصدين أعمالهم شكرت ربها لأنها ليست من زائري المدينة الدائمين.

كانت قد تلقت في وقت متأخر من بعد ظهر يوم البارحة اتصالاً من محاميها الذي طلب منها المجيء على وجه السرعة لمقابلته، فحيّرها اتصاله أو هذا أقل ما يقال.

فيما هي تتوجه إلى المبنى العصري، المرصوف بالرخام الأسود والزجاج علت وجهها تقطيبة خفيفة.

ما إن بلغت البهو حتى خطت إليان بسرعة نحو مجموعة من الناس المنتظرين وصول أي مصعد من المصاعد الثلاثة لنقلهم إلى الطوابق التي يقصدونها. واسترعى انتباهها رجل

طويل ذو بزّة سوداء يقف بعيداً قليلاً عن الباقين، فتعلقت عيناها به بفضول سريع. وجه عريض بارز القسمات وكأن تحاتاً تحته بإزميله، وانحدار مستدق رائع لأنفه الروماني، ولفكه الجميل، وشعر أسود كثيف ممشّط بشكل رائع.

في أواسط الثلاثين من عمره، هذا ما حكمت عليه، وهي مدركة أن هناك في وقفته ما ينمُّ عن نوع من السلطة، هذا عدا جاذبيته التي لا تقاوم.

وكأنما أحس بمراقبتها له، فالتفت قليلاً فإذا بعينيه تصدمانها، فما هما بزرقاوين ولا برماديتين، بل مزيج غريب من اللونين معاً.

وفجأة، وعت مظهرها وأدركت أن البذلة السوداء المشغولة بعناية حسب آخر صيحات الأزياء، التي ترتديها مع قميص حريري محتشم، تحيط جسدها الصغير بجو عملي، وأن شعرها الأشقر الأصهب الذي يبلغ حدّ كتفيها، المنسجم مع قسمات وجهها الناعم الرقيق يعكس الاتزان والحشمة.

احتاجت إلى كل ما لديها من سيطرة على الذات لئلا يرفّ جفنها، أو تنخفض عيناها إلى أدنى من مستوى نظرته المعتمة، ولسبب لم تستطع تفسيره، أحست بأعصابها جميعها تتوتر، فيما راح شعور بدائي غريب وغير مدروس يتحرك في نفسها.

بدت عيناها في لحظات غير معدودة مسمّرتين في عينيه، وخفقات قلبها تدوي عالياً: هل هي ردة فعل لجاذبيته المميزة فقط؟

ما من رجل يستحق أن تكون له هذه القوة. ومع ذلك فهناك سخرية مستقرة، واحتراس خفيف ظاهر تحت مظهره المتحذلق، وكأنه يتوقع منها فتح حديث يتضمن دعوة صريحة إلى... ما يعلمه الله وحده؟

اشتركت كبرياؤها مع دفاعاتها لتضيء عينيها بشعلة نارية، دفعتها إلى رفع ذقنها، لتنظر إلى عقارب الساعة المثبتة على الجدار الرخامي فوق المصعد.

وصل مصعدان إلى الطابق الأرضي في الوقت ذاته، فتراجعت تطلب الأقرب إليها ولكنها وجدت وإن متأخرة أن الرجل قد قرّر اللحاق بها.

امتلأ المصعد بسرعة، فصبّت اهتمامها عامدة على لوحة المصعد، ولكنها كانت تشعر بالرجل على مسافة قريبة منها. وعلى الرغم من ارتفاع كعبي حذائها أربع إنشات كان رأسه وكتفاه أعلى منها، وقد استطاعت لقربه منها أن تشم عطره. وعندما توقف المصعد في الطابق الذي تطلبه تنفست الصعداء.

ولكن شعورها بالراحة لتخلصها من وجوده لم يعمّر طويلاً، فقد اكتشفت أنه خرج من المصعد أيضاً، وأنه يتوجه إلى الجناح الذي تقصده.

تحركت نحو مكتب الاستعلامات فذكرت اسمها، واسم المحامي الذي هي على موعد معه. ثم اختارت كرسياً قريباً لتجلس عليه، ومدّت يدها لتأخذ مجلة، وهي تشعر بشكل متزايد بوجود الرجل الواقف بكل راحة أمام ناظريها.

شيء ما فيه أزعجها، نوع من الألفة لم تستطع تثبيتها.

ـ آنسة ألبستون؟ اتبعيني لو سمحت، فالسيد ماكدونالد بانتظارك.

ولحقت إليان السكرتيرة الأنيقة عبر ممرّ عريض يفضي إلى مكتب عصريّ يطل على منظر رائع للمدينة... ردّت تحية المحامي ثم اختارت مقعداً من المقاعد الثلاثة قبالة طاولته... وقالت:

ـ هناك دون ريب حاجة ملحّة دفعتك إلى طلب رؤيتي؟

ـ بالطبع.. إنه شعور غير متوقع.

ومدّ هوارد ماكدونالد يده ليتناول ملفاً يقلب فيه أوراقه.. ثم أردف:

ـ أوصل هذه الأوراق مراسل خاص بعد ظهر الأمس، وقد أعقب وصولها مكالمة هاتفية من رجل أكّد أهميتها.

علت جبينها تقطيبة خفيفة وقالت:

ـ أعتقد أن مسألة أنيتا قد حُلّت.

ـ أجل.. ولكن الوصاية على ابنها لم تحل بعد.

أحست بما يعتصر قلبها:

ـ ماذا تعني؟

أحنى رأسه، فانزلقت النظارة فوق أنفه مما سمح له بالنظر إلى إليان من فوق إطارها:

ـ لدي نسخات عن وثائق قانونية من محامي عائلة كوريزيو تطالب بجوزف...

وتوقف ليمعن النظر في الاسم المدوّن أمامه:

ـ الطفل جوزف ابن جوزيبو رافاييل كوريزيو ابن أنيتا غراسيلا ألبستون المولود في مستشفى خاص بمدينة هاستنغز منذ شهرين تقريباً.

شحب وجه إليان من الصدمة، واتسعت عيناها وكأنهما بحيرتان كبيرتان تعكسان الرعب وعدم التصديق:

ـ لا يمكنهم فعل ذلك!

ـ لقد ماتت أنيتا فور ولادته دون ترك وصية شرعية تذكر فيها من يتحمل مسؤولية ولدها. وبما أنك قريبتها الوحيدة، فقد قمتِ بدور الحاضنة والأم البديلة...

توقف قليلاً ليجلي حنجرته:

ـ الولد تقياً يتيم، والقرار في الظروف العادية تتخذه دائرة الخدمات العائلية التي تحدّد كيفية تربية الطفل والعناية به، هذا بعد الأخذ بعين الاعتبار الظروف المحدقة بالولد. وما أحب أن ألفت انتباهك إليه أنه يحق لأي فريق التقدم بطلب التبني.

ـ أتقصد أن لعائلة زوج شقيقتي حق تبني الولد كحقي فيه؟

ـ أجل.. بل أكثر.

ـ ولكن هذا مستحيل.

ثم انهمرت دموعها على غير إرادة فقد تذكرت شقيقتها التي تصغرها بست سنوات. لقد كانت صغيرة جداً، خالية النفس من الهم، في التاسعة عشرة من العمر، ومع ذلك فقد

اكتشفت، بعد أسابيع من عودتها من رحلة مثالية إلى باريس، أن ارتباطها الطائش قد تسبب بحملها. فأرسلت رسالة سريعة إلى العنوان الذي أعطاه إياها الشاب الذي تزوجته دون تفكير في باريس. ولكنها لم تتلق رداً... وعندما حاولت الاتصال هاتفياً بروما على العنوان الذي معها، لم تجد مرامها، لأن الرقم لم يكن مباشراً فتعسّر عليها الوصول إليه.

أما الطفل جوزف الصغير، فقد عاش فقط لأن أمه رفضت فكرة الإجهاض على أمل أن يعود إليها أبوه يوماً ما. فكان أن خرج إلى الدنيا بعد كفاح مرير، اضطر فيه الأطباء إلى إجراء عملية قيصرية لإخراجه.. ثم لم يلبث أن ضرب القدر ضربته فحدث لأنيتا مضاعفات بعد الولادة كانت نتيجتها وفاتها المأساوية بعد أيام.

عانت إليان ما يفوق التصور لتجري الترتيبات اللازمة، فوظفت موظفة في مكتب هندسة الديكور الذي تملكه. واستخدمت مربية للعناية بالطفل. فاستطاعت بذلك قضاء أطول وقت ممكن مع الطفل الصغير.

قطع المحامي عليها حبل أفكارها.

ـ أفهم قلقك يا إليان! السيد كوريزيو عرض عليّ أن يشرح لك شخصياً الأسباب التي تدعم طلبه.. وعليك على ما أرى الاستماع إلى ما يقوله.

وضغط المحامي على زر الهاتف الداخلي، وأملى على سكرتيرته التعليمات اللازمة.

وما هي إلا ثوان حتى انفتح الباب، فأطلّ منه ذاك الرجل الطويل الجذّاب المظهر، الذي نجح في تشتيت أفكارها قبل نصف ساعة.

تقلصت معدتها وتلوت بطريقة غير مفهومة. من هو؟ لقد شاهدت عدة صور التقطتها أنيتا في عطلتها. وهي متأكدة أن صورة هذا الرجل لا تشبه أحداً منها. قام المحامي بمهمة التعريف بينهما بأدب: «إليان ألبستون، أرمالدو كوريزيو» وجاءها القبول بالتعارف:

«تشرفنا آنسة ألبستون» وكان الصوت عميقاً ذا لكنة خفيفة، فاجتاحت قشعريرة باردة جسمها خاصة وقد راحت عيناه تجولان على قسماتها، حتى اشتبكتا بنظراتها الدهشة ثانية قصيرة قبل توجيه انتباهه إلى الرجل الجالس قبالتها:

ـ أعتقد أنك أطلعت الآنسة ألبستون على التفاصيل؟

ردت عليه إليان بحذر وهو يمدد طوله على كرسي ملائم:

ـ ربما يتفضل السيد كوريزيو فيكشف علاقته بوالد طفل شقيقتي بالضبط؟

ولم يعد هناك شك في أنها أعلنت الحرب ولكن ما أثار أعصابها أنه بدا من خلال الأدب الشفاف الذي يتظاهر به مسروراً. رفع رأسه ساخراً:

ـ أعذريني آنسة ألبستون، أنا شقيق جوزيو الأكبر، شقيقه من أبيه على وجه التحديد.

ـ ومن يطالب بجوزف، أرسلك وكيلاً عنه؟

قست عيناه الشاحبتان حتى أصبحتا كالخزف الرمادي:

ـ لقد مات جوزيبو. وقعت له حادثة سيارة فظيعة في السنة الماضية فتركته مقعداً حتى أجهزت عليه بعض الاعتلالات الصحية نهائياً قبل شهر.

راح تفكير إليان يدور حول عقد صفقة، بينما تابع أرماندو كوريزيو كلامه بصوت يخلو من أية عاطفة:

ـ لم تكن عائلتي على معرفة بوجود شقيقتك، فما بالك بورطتها، حتى اكتشفنا بعد أسبوع من وفاته عدة رسائل مخبأة بحذر.. وقد لزمنا وقتاً حتى اكتشفنا بعض الحقائق التي اتخذنا على إثرها إجراءاتنا.

ـ أية إجراءات؟

ـ على الطفل أن ينشأ بالتأكيد بين أهله، فهو أحد أفراد عائلة كوريزيو.

اتّقدت عينا إليان ناراً:

ـ لن يحدث هذا، بالتأكيد!

ـ وهل تعارضين حقي؟

ـ حقك؟

ـ بالطبع.. كيف تسألين عن حقه في الميراث وهو أول وليد للعائلة.

ـ الطفل في وثيقة الميلاد مسجل تحت اسم «جوزف أليستون» سيد كوريزيو. وبما أنني أقرب أقرباء أنيتا فقد تحملت وحدي مسؤولية ولدها كاملة.

عندما لم يتأثر ارتفع رأسها بتحدٍّ. قال بسخرية تبعث الرعدة:

ـ فحص الدم قرّر بما لا مجال فيه للشك أن أخي هو والد ابن شقيقتك.

اجتاحت إليان موجة غضب... كيف يجرؤ حتى على قول العكس! ولكنها رغم ذلك سيطرت على غضبها:

ـ ما هو برأيك غرض أنيتا من إرسال تلك الرسائل التي تطلب فيها العون سيد كوريزيو؟ ابتزازكم؟

ـ لقد تبادرت إلى أذهاننا هذه الفكرة بالفعل.

ـ أيها المتعجرف المهين....

وسارع إلى تحديها ببرود ما إن توقفت عن الكلام...

ـ أرجوك.. تابعي كلامك..

ـ أنت وغد!

ثم راحت تبحث في عمق عينيه:

ـ لم تكن أنيتا بحاجة لمال.. أخيك.. أو لمال عائلته. وهذا ما سيؤكده لك السيد ماكدونالد، لقد ورثت أنا وشقيقتي عن والدنا منذ سنوات مالاً يكفينا لتأمين حياة لائقة دون الحاجة إلى أي شيء آخر. وقد حدث عندما تركت أنيتا المدرسة أن انضمت إليّ في عملي. شقيقك سيد دوماريوس، تزوجها في رحلتهما المشتركة إلى باريس، ووعدها بأن يرسل في طلبها بعد أسبوع من عودته إلى روما لتتعرف إلى عائلته.

فقال لها أرماندو كوريزيو ببرود:

ـ لقد وقعت تلك الحادثة بعد يوم من عودته، وبقي طريح الفراش في غيبوبة أسابيع، وعندما علم بخطورة إصابته، رأى أن لا مستقبل له كزوج.

صاحت إليان باتهام مشرع:

ـ كان بإمكانه مراسلتنا! لقد عذّب صمته أنيتا أشهراً طوالاً. وها أنت تقلل من قدر شقيقتي، سيد كوريزيو، فهي ما كانت ترفض العيش مع جوزيبو بسبب إصابته لأنها أحبّته.

ـ والحب، حسب رأيك، يتغلب على كل شيء؟

ـ كانت أنيتا تستحق فرصة لتبرهن له ذلك.

بعثت نظرته الممعنة الخوف إلى قلبها، ولكنها رفضت أن تشيح نظرها عنه. ثم سألها برقة متعمدة:

ـ وأنت آنسة أليستون؟ هل كنت ستمنحين رجلاً هذا الولاء والإخلاص؟

لم تتنازل إليان للرد، فران صمت ثقيل في الغرفة حتى كادوا يسمعون أنفاسهم. سمعت إليان صوت الوسيط، فالتفتت ببطء إلى الرجل الجالس وراء طاولته وهو يقول:

ـ لا بدّ من إيجاد حل لهذا الوضع. وأنا كوني محامي أليسون أتحدث باسمها وأقول: إنها ستقدم طلباً رسمياً لتبني الطفل.

ـ تفتقر الآنسة أليستون قانونياً كامرأة غير متزوجة إلى الموقف القانوني لمعارضة حقي في حضانة ابن أخي.

ردت عليه إليان بإصرار:

ـ هذا إذا كنت متزوجاً. فهل أنت متزوج سيد كوريزيو؟

فأجابها بصوت ناعم:

ـ لا.. وهذا ما سأعوض عنه دون تأخير.

ـ حقاً؟ وهل أنت خاطب كي تتزوج؟

لا تذكر أنها كانت وقحة قط لهذه الدرجة! وأجابها ببرود:

ـ لا يهم إن كنت أفكر في الزواج أم لا، خاصة وأن لا شأن لك في طرح سؤال كهذا.

أصرت على القول:

ـ أوه.. ولكنه شأني سيد كوريزيو، فإذا كان الزواج طلب ضروري في معركتي لتبني جوزف، فسأحاربك بالسلاح ذاته بالسعي إلى إيجاد زوج بأسرع وقت ممكن.

ثم التفتت إلى المحامي تسأل:

ـ هل سيدعم الزواج قضيتي؟

لم يشعر هوارد ماكدونالد بالراحة:

ـ يجب أن أحذرك من مخاطر الزواج العاجل الذي يهدف فقط إلى تأمين أب بالتبني لابن شقيقتك. وما من شك أن السيد كوريزيو سوف يعلن ارتيابه بدوافعك.

أجابته بغضب وإصرار:

ـ وأنا أيضاً سأشك في دوافعه إذا كان سيتزوج حالاً.

قال السيد ماكدونالد ببطء وحذر:

ـ لماذا لا تتزوجان بعضكما بعضاً لتؤمنا لهذا الطفل علاقة مستديمة، بدل العراك الطويل مع مكتب خدمات الحكومة

العائلي حتى يقرر المكتب من عليه تبني الطفل قانونياً؟

نظرت إليان إليه وكأنه فقد عقله فجأة:

ـ لست جاداً بالتأكيد؟

وهز المحامي كتفيه:

ـ ليس زواج المصلحة بغريب حدوثه.

فردت عليه بخشونة:

ـ ولكنني أشك في أن يكون السيد كوريزيو مستعداً للتنازل بمثل هذه الطريقة.

ـ ومن أين لك بهذه الثقة آنسة أليستون؟

أزعج سؤاله المتشدق أعصابها الثائرة التي قطع فيها عمياً كمشرط فولاذي. فأجابت حتى تقطع الطريق على هذا التساؤل:

ـ أوه حقاً! إنّ حلاً كهذا لهو منتهى الغباء.

ـ حقاً؟

جعلتها ابتسامته تشعر وكأنها حمامة توشك أن تنقضّ عليها مخالب صقر جارح.

ـ إن الفكرة يا آنسة على درجة من الجدارة.

ـ ولكنني لا أرى أن هناك أسوأ من السجن في زواج مع رجل مثلك.

لو كان قادراً على هزها ليزهق روحها لفعل. كان هذا ظاهراً في عينيه، وفي قسمات وجهه الجامدة، فقاومت ارتعاشة خوف، واختارت بدلاً عن ذلك ضمّ يديها لحماية

نفسها.

ولكن صوتاً رفيعاً في باطنها سألها: ممّ تحمين نفسك؟ فهو لن يشكل تهديداً لك.. بالله عليك!

ـ ليس هناك ما قد نجنيه من استمرار هذا النقاش.

هبّت بسرعة على قدميها وتابعت بكل أدب:

ـ نهاراً سعيداً سيد ماكدونالد.

ثم نظرت إلى الرجل الآخر بغضب أسود:

ـ وداعاً سيد كوريزيو.

ولم تعبأ بمحاولة المحامي تلطيف الجو، وسارت نحو الباب وفتحته، ثم أغلقته بهدوء خلفها قبل أن تشق طريقها إلى الخارج.

لم تكد تصل إلى سيارتها، حتى بدأت تغلي غضباً. اللعنة... اللعنة على أرماندو كوريزيو!

تمسكت يداها بالمقود، وقد اجتاحها الغضب الصامت حتى وصلت إلى مكتبها دون أن تصطدم بأحد، وذلك كان معجزة.

* * *

٢ ـ زائر الليل

أمضت ما تبقى من الصباح في نقاش مع الموظفة في مكتبها، ميراي ستانلي. فتأكدت من أن الوضع على ما يرام. وكان النهار قد انتصف قبل أن تتمكن من المغادرة.

عندما وصلت إلى حمى منزلها المريح شعرت بالراحة فأسرعت لتحلّ محل المربية التي رحلت حالما وصلت. وضعت بعض الغسيل في الغسّالة، ثم قامت ببعض الترتيبات المنزلية قبل أن يستيقظ جوزف.

بعد أن غيّرت له، أعطته زجاجة الحليب، ثم حضّرت كل شيء للقيام بالمشوار المعتاد بعد الظهر. ابتسم لها حينما وضعته في العربة وربطت الحزام، إذ يبدو أنه يحب النزهات.

كان الهواء نقياً وبارداً، وشمس الشتاء تظل من بين أغصان الأشجار مشعةً على أطراف الشارع العريض. سارت إليان برشاقة، وعيناها تبرقان حباً كلما رأت إيماءة أو تعبيراً على وجه ابن أختها الصغير. كان نشيطاً جداً، مفعماً بالحياة، يزداد نمواً بشكل ظاهر كل يوم.

فجأة تغضّن وجهها لأنها تذكرت المشاورات الصباحية في

مكتب المحامي.. فهل من الممكن أن تخسر دعوى الحضانة؟ وهل ينجح ذلك الكريه أرماندو كوريزيو في طلبه؟ ففكرت في ضرورة الاتصال بالمحامي في أسرع وقت ممكن.

ما إن عادت إلى المنزل حتى أسرعت إلى وضعه في المغطس للاستحمام فضحك وهو يلعب بالمياه. وعندما أتمت غسله وتجفيفه وتدليكه بالبودرة، ألبسته الثياب النظيفة ووضعته في مهده، ثم ناولته زجاجة الحليب. والآن، إلى الاتصال بالمحامي.

راحت تتساءل بلهفة وهي تتابع حديثها معه:

ـ هل يمكن أن أخسر جوزف؟

ردَّ المحامي بعناية:

ـ ستحتاجين في سبيل حلٍّ دائم إلى وقت طويل، فدائرة الخدمات العائلية تحقق في ما يأتيها من قضايا حضانة، ولكنها تتخذ القرار في النهاية.

ـ ولمن الأفضلية بحسب رأيك؟

ـ من المستحيل تجاهل الوقائع يا إليان. لقد درستُ الوثائق المتعلقة بوضع أرماندو كوريزيو المالي، وهو وضع إيجابي يدعمه بقوة.

أحست بإصبع بارد تمر بفقرات عمودها، فكبحت قشعريرة:

ـ إيجابي؟ أتقصد أن وضعه المالي أفضل من وضعي بعض الشيء؟

ـ يا عزيزتي، أنت محظوظة بما لديك من وضع مادي تحسدك عليه النسوة، ولكنك نقطة في بحر ثرائه.

ـ اللعنة عليه!

وخرجت اللعنة من فمها بصوت أجش، فذكّرها المحامي بهدوء:

ـ مصلحة الطفل تأتي أولاً... سأحضر الطلب لتوقيعه غداً.

بعد المكالمة راحت تكمل الأعمال المنزلية المتبقية، ثم لم تلبث أن وضعت اللمسات الأخيرة على رسومات مشروع الديكور الذي يخص أحد الزبائن. وعندما انتهت، تنفست الصعداء، ثم مطت ذراعيها إلى الأعلى، وحركت كتفيها لتريح عضلاتها.

دوّت صرخة جوزف في هدوء المنزل، فأسرعت إليه تطعمه قبل أن يعود إلى النوم.

بعد دقائق، غرقت في كرسي في غرفة الجلوس، تنتظر غليان إبريق القهوة، وهي تتوق لا للمرة الأولى إلى شخص ما تسرّ إليه أسرارها.

ولكن رنين الجرس كسر هدوء الغرفة، فأسرعت لترد قلقة، فمن يكون الزائر في مثل هذا الوقت من المساء؟

تفقدت سلسلة الأمان في موضعها وسألت مترقبة «من الطارق؟» فجاءها الرد «أرماندو كوريزيو».

ـ كيف عرفت عنواني؟

ـ من دليل الهاتف.

وكان في صوته بعض السخرية.

ـ وكيف تجرأت على المجيء إلى منزلي في هذا الوقت؟

ـ لا تعتبر الثامنة والنصف وقتاً متأخراً.

سحبت نفساً عميقاً، ثم زفرت ببطء:

ـ ليس لدي ما أقوله لك.

ـ هل أذكرك بأن لدي الحق بزيارة ابن أخي؟

أرسلت نبرته الساخرة رعدة باردة إلى أوصالها... اللعنة عليه!.. من يحسب نفسه؟

ـ جوزف نائم سيد كوريزيو.

ثم ساد الصمت برهة، تمنت خلاله لو يمضي في حال سبيله، ولكنه قال:

ـ لا فرق لدي إن كان نائماً أم مستيقظاً آنسة أليستون.

أغمضت إليان عينيها، وأطلقت تنهيدة طويلة. فلأرماندو كوريزيو دون شك إرادة فولاذية وتصميماً، وإذا رفضت طلبه الليلة، فسوف يصرّ على طلب رؤية جوزف في وقت آخر. وهذا يعني أنه في كلتا الحالتين سيصل إلى غايته.

فتحت الباب قليلاً دون أن تبعد سلسلة الأمان، فلاحظت أنه قد بدّل بذلته الرسمية بسروال رمادي وكنزة صوفية باهظة الثمن. كان يشكّل حتى وهو داخل منزلها عاملاً مقلقاً جعلها تعجز عن النظر إليه إلا باضطراب. سألته:

ـ هل تعدني بعدم محاولة خطف جوزف؟

برقت عيناه وقتاً، ثم تراقصت عضلات وجهه فوق عظام فكيه، حتى غدت قناعاً من الغضب:

ـ ولماذا ألجأ إلى الخطف؟ ربما عليّ أن أذكرك بأن عدم تعاونك معي سيؤخذ بعين الاعتبار ويسجل ضدك.

أغراها قوله في أن تسأله عما قد يفعله محاموه لكسب الدعوى، ولكن تفكيرها السويّ أعاد رجاحة عقلها في الوقت المناسب. سحبت إليان سلسلة الأمان من مكانها، ثم تراجعت لتسمح له بالدخول.

ـ شكراً لك.

ـ غرفة جوزف في مؤخرة المنزل.

ثم سارت أمامه حتى دون أن تنظر إليه، فقد كانت تعلم أنه سيلحقها عن كثب، وقد شاءت أن تسير بتؤدة، ولكن خطواتها على غير إرادة منها تسارعت حتى وصلت إلى آخر الممر مقطوعة الأنفاس، لهثة.

فتحت الباب على مهل ليدخل النور منه مضيئاً الغرفة الكبيرة الواسعة التي أعدّت للطفل قبل أن يولد بعدة شهور. طلاؤها الأبيض جديد، على كل جدار منها لوحات مائية، ورفوف مختلفة الأحجام لكافة أنواع الألعاب المتحركة المعلقة في السقف.

نظرت نظرة عدوانية إلى الرجل الواقف أمامها تترقب منه حركة قد تزعجها، ولكنها لم تلاحظ تغييراً على تعابير وجهه. فماذا توقعت؟ هل توقعت لبناً في هذا المظهر الخارجي

القاسي؟

وكأنما أحس جوزف بأنه هدف معركة صامتة، فتحرك ملوحاً بذراعيه ثم استلقى على ظهره، وساقاه الصغيرتان ترفسان الغطاء حتى عاد للاستقرار في النهاية بعد تنهيدة صغيرة.

أرادت إليان أن تصرخ قائلة إن جوزف لها، وإن لا أحد قد يأخذه منها.

وكأنه غير مستعجل على الذهاب، لأنه ترك غرفة الولد ودخل غرفة الجلوس دون أن يُدعى إليها، فوقف فيها ويده في جيب سرواله. ثم قال مقترحاً بعد أن عرّضها إلى نظرة تحليلية شملت غضبها بطريقة ما:

ـ ربما نستطيع التحدث الآن؟

ـ ألم نقل ما كان يمكن أن يقال هذا الصباح؟ من المؤسف أن جوزيبو لم يدرك أن لابنه هذه الأهمية الكبرى.

ـ لقد كانت هناك ظروفاً مانعة.

ـ لو أحبت شقيقتي حقاً لأصر على أن يقوم أحد ما، حتى أنت بالإجابة عن رسالة من رسائلها. لقد كان عليه تبعات تجاهلها.

لم يرق له جفن وهو يقول:

ـ لقد كان يتعذب من فكرة أن تنجب له أنيتا ولداً لا يستطيع رؤيته.

ـ كانت الجائزة الوحيدة التي خرجت من هذه الكارثة،

جوزف.

ونظر إليها بقسوة قبل أن يتكلم في النهاية:

ـ يجب عليك أن تفهمي أن الولد لن ينشأ إلا بين أفراد عائلته، عائلة كوريزيو.

شاهدت إليان الحل المتجهم واضحاً، فاجتاحها ذعر كبير دفعها إلى أن تسأل بكآبة:

ـ ولماذا؟ إن قدرة رجل أعزب على تقديم خدمات مربية لا تُقارن بحبي واهتمامي.

رفع كتفيه، وكأنه يسوي حملاً ثقيلاً قابعاً عليهما. وأظهرت قسماته عزماً لم يعد لها أمل في أن تثنيه عنه، وقال:

ـ أنت أيضاً توظفين مربية بعض الوقت.. أليس كذلك؟ ومع ذلك اعترفت بأنك تقومين بعمل ناجح. وبعد مرور الأشهر ستصبح حركة ابن أخي أقوى وأنشط، فينام عندئذ فترة أقل ويتطلب اهتماماً أكثر، وساعتئذ ستصبحين غير قادرة على توفير الوقت اللازم لجوزف. لذا من الإجحاف أن تعتبري عنايتك به قد تفوق عنايتي به.

سألته إليان بغضب:

ـ أوَ بعد افتراضك هذا تتصور أنني قد أعلن هزيمتي؟

ـ أنا على استعداد لإيداع مبلغ ضخم باسمك في المصرف.

هزت رأسها غير قادرة على استيعاب ما تسمع:

ـ أهذه رشوة سيد كوريزيو؟ ما من مال مهما بلغ قد يقنعني

بالافتراق عن ابن أنيتا.

نظرت إليه نظرة ازدراء وكراهية، ثم أردفت:

ـ والآن، هلاَّ غادرت منزلي.

ـ لم أنتهِ بعد مما أتيت أقوله.

إن جلده دون شك أسمك من جلد وحيد القرن. أحست إليان بالغضب يتصاعد من مسام جسدها حتى أصبح ينضح به:

ـ إن لم تخرج حالاً أستدعِ الشرطة!

وأشار ببرود إلى الهاتف:

ـ هيا.. تقدمي.

فصاحت به:

ـ هذا منزلي، اللعنة عليك!

دكنت عيناه واشتدت خطورتهما.

ـ لقد تخليت عن الاستشارة القانونية هذا الصباح، وأنت الآن ترفضين مناقشة مصلحة جوزف. لذا أرى أن الشرطة سيتعاطفون معي.

ـ وسيرمونك إلى الخارج أيضاً.

قال لها مصحّحاً:

ـ بل سيقترحون عليَّ الرحيل للتباحث معك بواسطة قانونيين.

ثم لم يلبث أن توقف عن الكلام بعد ما قست عيناه الخطرتان اللتان عكستا قوة وإرادة ورجولة غير مرنة إطلاقاً. ثم أضاف:

- لابن شقيقي الراحل الحق في حصته من إرث كوريزيو، وهذا ما كان سيريده جوزيبو، وما سيريده والدي أيضاً. ولو أن أنيتا ما تزال على قيد الحياة لرغبت في أن تعترف عائلة كوريزيو بابنها ليتلقى الفوائد المالية، والإرث الذي هو حقه القانوني.

احتدّت عينا إليان وازداد عمقهما غوراً:

- سأطلب التحقيق عنك وعن عائلتك كلها.

ولكن تهديدها فشل في تحقيق مرامها، لأنه قابل ما قالته بابتسامة ساخرة:

- اسمحي لي أن أقدم لك المعلومات المناسبة قبل أن تطلبي تأكيداً رسمياً.

كان تحت واجهة السخرية درجة من الغضب المعادي، الذي بعث الرجفة إلى أوصالها.

- يعيش والدي وزوجته في روما.. أما أنا فقد تركت إيطاليا في العشرين من عمري، لأستقر في إنكلترا وتحديداً في لندن. وقد عملت عامل بناء سبعة أيام في الأسبوع، حسب ظروف العمل والطقس، ثم بعد ثلاث سنوات، سافرت إلى نيوفوندلاند. حيث اشتريت أرضاً بنيت فوقها معملاً لقطع الرخام... وذلك قبل أن أغامر في المجال العالمي حتى غدت شركتي بعد ثلاث سنوات أكبر شركة لتوريد الرخام في العالم. وهذا يعني أنني أملك من المال الخاص بي ما يخولني الحصول على موافقة دائرة الخدمات العائلية، أما أفراد عائلتي

ولا أسرار مستترة لديهم.

فقالت له ساخرة:

- ليس قولك هذا بخلاصة كاملة سيد كوريزيو.

- وإلى أي مدى تريدين نبش الماضي؟ هل تلطّخ والدتي الخلاسية الأصل اسمي، تدينني؟ أم تدينني وفاتها في طفولتي؟ أهذا يكفيك آنسة أليستون؟

وارتفع حاجباه فوق عينيه، وكأن الذكريات قد أثّرت فيه:

- ربما تحبين أن تعرفي أيضاً أن امرأة إنكليزية حلوة قد خطفت آلام والدي وتزوجته ثم أنجبت منه ذكراً آخر لم يزعج وجوده مركز الابن الأكبر في العائلة ولم يخفف أو يغير مشاعر والدي تجاهي بأية طريقة. وهناك أمر آخر يتعلق بزوجة أبي التي عاملتني كابنها، ونحن باقيان على اتصال دائم، إذ نتبادل الزيارات على الأقل مرة كل سنة.

- والآن بعد وفاة جوزيبو، يريدان أن يلعبا دوراً مكملاً في حياة جوزف.

أخرجت هذه الكلمات بصوت لا معنى له فصفعها غضب عمي كالسوط.

- هل أنت أنانية إلى درجة أن تفشلي في فهم ما يعني جوزف لهما؟

- أنا أفهم ما يعنيه لي.. ليت أنيتا لم تراسل جوزيبو، أبداً...

- لا تلومي الوقائع بأماني لا أساس لها. فالرسائل إثبات

دامغ... حذارِ أن تشكّي في هذا لحظة واحدة.

صاحت به:

ـ وماذا لو أصررت على لعب دور الأم!

ـ هل أنت على استعداد لتسوية الوضع؟

ـ تسوية؟ وهل أنت مستعد للتسوية؟ لماذا عليّ أنا التخلي عن السعادة في زواج أختاره بنفسي؟

ضاقت عيناه وهو يسألها:

ـ هل هناك شيء ما في زوايا الانتظار آنسة أليستون؟ هل هناك شخص يملك من الغباء ما يجعله يظن أن باستطاعته غزو روحك المتمردة، والفوز بها؟

ـ وما الذي يجعلك تظن أن باستطاعتك الفوز؟

لمعت عيناه بالمزاح، ثم راحت عيناه تحدجان مفاتنها حتى تضرّجت وجنتاها خجلاً.

ـ لي من الخبرة مع النساء ما يجعلني أعرف أنك تقاومين أية سيطرة قد يفرضها عليك رجل، وترفضين في الوقت ذاته الاعتراف بمتطلباتك العاطفية.

عادت عيناه تطوفان على وجهها حتى استقرتا أخيراً على عينيها. فأحست بشعور يتعدى الإثارة يغزو أغوار نفسها ويسري في جسمها كله سريان النار في الهشيم، ومع ذلك صاحت:

ـ لن تكون أنت بالطبع ذاك الرجل الذي قد يقتحم حياتي سيد كوريزيو!

ـ أكد لي أحد أكبر الأدمغة القانونية في البلد أن طلب الثبي الذي سأطلبه ناجح. وما سعيت إلى المشاورات التي جرت في مكتب محاميك إلا لأنني شعرت بأنني مرتبط أخلاقياً بتقديمي شخصياً وقائع حادث شقيقي ومونه.. أما الطريقة الوحيدة لمستقبل جوزف... فمشاركتي المستقبل بالزواج بي.

ـ أنت تهددني، وهذا نوع من الابتزاز العاطفي. لقد حاولت شرائي، ها أنت الآن تحاول عرض زواج يناسبك فقط؟ اذهب إلى الجحيم... سيد كوريزيو!

شحن جوّ الغرفة شحنات قوية حتى توقعت إليان أن ينفجر شعلاً لهباً. قال لها ببرود:

ـ فكري ملياً قبل أن تحرقي الجسور القائمة بيننا.

ـ اخرج من منزلي.. فوراً..!

وتحركت بسرعة من الغرفة.

وفي البهو، مدت يدها لتفتح الباب، ولكنها شهقت صوت مرتفع حينما أمسك أرماندو كتفيها وأدارها إليه بكل سهولة، قائلاً:

ـ تغريني نفسي بتلقينك درساً تستحقينه.

وكان غضبه ظاهراً، لا أمل لها برده. وضعت إليان يديها على صدره تحاول دفعه عنها، ولكنه ضمها إليه بقوة حتى عجزت عن الدفاع خاصة وأن مشاعرها اندفعت عنيفة في روحها.

وكما أمسك بها فجأة، تركها، فارتدت إلى الخلف

لتلتصق بالجدار مرهقة، وعيناها تقدحان كرهاً صامتاً.

في تلك اللحظة بالذات، انطلقت صرخة مدوية من غرفة النوم، فاندفعت إليان معمية القلب إلى غرفة الطفل.

انحنت فوق المهد فحملت الجسد الصغير بين ذراعيها تشم رائحته المنعشة وتشعر بنعومة بشرته الحريرية على خدها.

فجأة تحولت صرخاته إلى فواق، فطفرت دموع حمقاء من عينيها، ورفرفت بعينيها بسرعة لتمنع تدفقها، ولكن جهودها ذهبت سدى، إذ انسابت الدموع شاقة طريقها على وجنتيها.

كانت الحياة هذا الصباح بسيطة فإذا بأرماندو كوريزيو خلال اثني عشرة ساعة، يقلبها رأساً على عقب.

التفتت بعدما شعرت بمن تفكر فيه في غرفة الطفل.

همست له بألم «أيها النذل! أليس لديك أي تردد؟»

- ليس لدي أي منها فيما يتعلق بجوزف.

- إن ما تقترحه لابتزاز عاطفي. اللعنة عليك!

وظهر صوتها يخنقه الغضب، ولكن صراخ جوزف جعلها تهدأ، إذ راحت تهدهد جسده الصغير. قال أرماندو كوريزيو بقسوة:

- ما أقترحه، أبوان ومنزل واستقرار لجوزف.

- وأين الاستقرار مع شخصين ليس بينهما إعجاب حتى؟

أفٌ له... من يظن نفسه بحق الله؟ هزت رعدة باردة جسدها النحيل لأنه يعرف تماماً قدر نفسه وقدرته. تابع وكأنها لم تقل شيئاً:

- البدائل محددة... والخيار لك وحدك. أمامك مهلة حتى مساء الغد لأحصل على ردك.

أحست به يتجاوزها ليفتح الباب، ثم سمعت تكتكة قفل الباب النهائية، وداهمها شعور بالخوف لإدراكها مدى سيطرته عليها.

* * *

www.liilas.com
samra

٣ ـ في قلب الهاوية

وقفت إليان حيث هي فترة بدت لها دهراً، قبل أن تضع جوزف في مهده، ثم تحركت ببطء إلى مقدمة المنزل لتوصد الباب بإحكام. بعد ذلك توجهت إلى غرفتها، حيث خلعت ملابسها واندست في الفراش قلقة.

اللعنة... اللعنة عليه... أخذت تشتم وكأنها تنظم، فلا يحق لأرماندو كوريزيو أن يضعها في وضع حرج كهذا. كانت تشعر للمرة الأولى بأن الشك يلتهمها، وأنها قلقة إلى حد عجزت معه عن الاسترخاء.

طغت التصورات على مخيلتها حيث كان كل تصور أكثر إيلاماً من السابق، فأغمضت عينيها بقوة لئلا ترى الحقيقة المرّة.

فإن نجح أرماندو في دعواه أبعد جوزف آلاف الكيلومترات، وسيكون عليها حتى ترى جوزف الاعتماد على كرم أرماندو كوريزيو، وسيكون تدبير أمر رحلة لرؤية جوزف مرتين أو أكثر في السنة صعباً عليها، معارضاً مصلحة أعمالها.

بعثت هذه الفكرة الدموع إلى عينيها... يستطيع الأبوان

المطلقان المنفصلان المشاركة في حضانة أطفالهما. ولكن حتى تكون مطلقة، لا بد من الزواج أولاً... ربما... لا.. هذا أمر مستحيل! أم هو عكس ذلك؟ وحتام سيستمر هذا الزواج؟ سنة؟ بالتأكيد لن يدوم مدة أطول.. تسارعت الأفكار في رأسها.

بعد إجراء عملية حسابية صغيرة أدغشت عيناها والتوى ثغرها المتململ.

حين يتصل أرماندو كوريزيو بها غداً، ستصيبه الدهشة لأنه سيكتشف أنها قررت الإذعان له. فخسارة سنة أو سنتين من عمرها لن يكون ثمناً غالياً تدفعه للاحتفاظ بجوزف.

نامت للمرة الأولى منذ جنازة أبيها ملء أجفانها، لا يؤرقها هم.

في الصباح، استيقظت نشيطة تتوق للبدء بيوم جديد.. في هذا اليوم كان أول ما فعلته الاتصال بالمحامي لتسأل عما إذا كان هذا الزواج يقرر مصير التبني رسمياً أم لا، فعبّر المحامي عن فرحته.

كانت ميراي الموظفة في المكتب أكثر من مسرورة للترقية التي نالتها، فقد أبلغتها إليان أن مكتب الديكور الهندسي هو الآن تحت مسؤوليتها المباشرة.

وما أن حلّ بعد الظهر، حتى أحست إليان بالراحة، وقد تأكدت أن كل شيء يسير على ما يرام.

في المساء، ردّ جرس الهاتف مرتين، ولكن لم يكن

المتحدث أرماندو كوريزيو، فغشيت عينيها سحابة من الريبة. فماذا إن امتنع عن الاتصال؟ ولكنها انتفضت عندما رنَّ جرس الهاتف بإلحاح، فأسرعت لتلتقطه.

- إليان؟

لا تخطئ، أبداً هذه النبرة الخفيفة، ولكن استخدامه لاسمها بحرية وبلا تكلف أدخل إلى قلبها بعض الهواجس. ثم تابع كلامه:

- هل توصلتِ إلى قرار؟

إنه دون ريب ممن لا يؤمن بأن من المجدي تضييع الكلمات سدى. شعرت بالغضب يعكر مزاجها، وصاح بها صوت داخلي صغير (احذري! فليس من مصلحتك كشف أوراقك كلها). أجابته:

- نعم.

أعقب إجابتها القصيرة صمت مطبق، وكأنه ينتظر منها أن تكمل كلامها، وعندما لم تفعل سألها بسخرية:

- هل يجب أن أنتزع الرد منك، كمن ينتزع الدم من الحجر؟

لولا مصلحة جوزف، لأغلقت السماعة في وجهه دون أسف. ولكنها قالت بخشونة:

- لقد درست طلبك، وقررت القبول.

قال لها أرماندو دون مقدمات:

- سيصل والداي من روما في بداية الأسبوع المقبل. وهما

دون شك في شوق إلى رؤية جوزف، وحتى يتمّ لهما ذلك عليك التوجه إلى نيوفوندلاند يوم الجمعة.

- لن أكون مستعدة في مثل هذا الوقت القصير.

- هناك عمال متخصصون في توضيب الأثاث، سيقومون بكل ما يتطلبه منزلك بشكل مرضي، فيما يتم شحن ما تحتاجين إليه إلى نيوفوندلاند، وما تبقى يوضع في المستودع. أما هذا المنزل فيودع في عهدة وكيل، وكذلك الحال بالنسبة لمكتبك... وأقترح عليك أن تبلغي المحامي أن يحضّر تفويضاً رسمياً لتوقعي عليه، ليتولى الأمور القانونية في غيابك. ليس عليك لإتمام هذا إلا بضع مخابرات، ولترضي دائرة الخدمات العائلية، علينا إجراء مراسيم زواج مدني هنا يوم الخميس إذا أمكن. أما الوثائق المتعلقة بتبني جوزف، فيمكننا توقيعها حتى تصبح قانونية، وهذا سيحررنا من أي تعقيدات عند نقله خارج بريطانيا.

سحبت إليان نفساً بصعوبة:

- يا الله...! أنت لا تؤمن أبداً بتضييع الوقت!

- سأدون لك رقم هاتف تتصلين بي اعتماداً عليه. هل من أسئلة؟

فردت عليه بسخرية:

- عشرة أسئلة على الأقل.

- يمكنك الانتظار حتى موعد العشاء مساء الغد.

- أمام ما عليّ فعله لن أجد وقتاً للعشاء حتى؟

ـ سأصطحبك في الساعة السادسة.

سمعت صوت إقفال سماعة الهاتف فأحست برغبة في صراخ عنيف .. ولكن ماذا توقعت؟.. حديثاً قصيراً؟

في المساء التالي قبل السادسة بخمس دقائق، تأكدت من بعض التفاصيل النهائية مع المربية، ثم طبعت قبلة سريعة على جبين جوزف، وتوجهت نحو غرفة الجلوس، وهي تشعر بتصاعد التوتر في معدتها.

الآن، وقد أصبح لزاماً عليها أن تراه ثانية، بدأت تتساءل عما إذا كانت مجنونة لأنها تريد التلاعب مع رجل بقياس أرماندو كوريزيو. إنه بلا شك يأكل الفتيات الصغيرات وقت الفطور، ولكنها ليست فتاة صغيرة ساذجة في التاسعة عشرة من عمرها، إلا أن خبرتها مع الرجال محدودة لا تتعدى الصداقات الأفلاطونية.

ومع ذلك، يجب عليها أن تمثل دور الخبيرة، على الأقل حتى تضع خاتمه في إصبعها.. وبعد ذلك سوف تضع القواعد التي سيقوم عليها الزواج.

عندما سمعت صرير باب السيارة أحست بتوتر مفاجيء جعلها بحاجة إلى شجاعة عظيمة.

ذكرتها نظرة واحدة إلى وجهه الجذاب بما تحسّ به من انجذاب تجاه هذا الرجل. تراجعت قليلاً لتسمح له بالدخول وهي تقول بأدب «أهلاً سيد كوريزيو».

قال لها بسخرية مستترة:

ـ تستطيعين بالتأكيد إجبار نفسك على مناداتي بأرماندو؟

وهزت رأسها برفض سريع... الثني... الغضب لن يوصلك إلى شيء. فكان أن اختارت معارضة أخفّ درجة:

ـ إذا كنت تصرّ على هذا فلا بأس... رجاءً ادخل... أترغب في شراب ما؟

ـ إذا كنت لا تريدين شيئاً، أقترح الذهاب فوراً. لقد حجزت طاولة للساعة السادسة والنصف.

تقدمته دون أن تنقوه بكلمة إلى السيارة، ثم تركته يسبقها ليفتح لها الباب. عندما احتلّ مقعد القيادة أحست بقربه منها.

ـ أين ستتناول العشاء؟

لم يكن السؤال مبتكراً أو جديداً، إنما قول أي شيء خير من الصمت.

ـ في الفندق الذي أنزل فيه.

التفتت إليه دهشة:

ـ كان يمكنني ملاقاتك فيه.

أجابها ساخراً:

ـ لتحافظي على استقلالية الإناث؟

ـ سأعود إلى المنزل بالتاكسي إذاً.

ـ هذا مستحيل!

وأحست برغبة إلى صفعه على عناده، ولكنها قالت له بنعومة:

ـ وهل يطعن هذا غرورك الرجولي المتعصب؟

سمعت ضحكته الخافتة قبل أن يقول:

ـ لا.. أبداً. ولكنني لن أسمح لخطيبتي وزوجة المستقبل بذلك.

أغمضت عينيها بقوة، ثم فتحتهما ببطء بعد عدة ثوان، إذ كان هذا هو الدفاع الوحيد الذي لديها لإخفاء الغضب الذي أحست به عليه.

وجدت إليان الفندق مألوفاً وكذلك الحال بالنسبة للمطعم. عندما جلسا في الداخل تركت له حرية الخيار ليطلب ما يشاء، وبعدما سألها عن طلباتها تحاور مع الساقي قبل أن يثبت الطلبات، ثم استوى في كرسيه إلى الخلف، وراح يحدجها بنظراته بإمعان.

ـ ألا يثيرك الفضول لمعرفة ما هي الترتيبات التي اتخذتها؟

ـ ليس لديّ أدنى شك في الكشف عنها قريباً.

ـ لدينا موعد مع مكتب التسجيل يوم الخميس في الساعة الحادية عشرة، تعقبه استشارة تقومين بها مع محاميك في الثانية. وفي الثالثة علينا أن نقدّم أنفسنا إلى دائرة الخدمات العائلية، ويوم الجمعة ستستقل الطائرة الأخيرة إلى نيوفوندلاند.

فداحة ما كانت على وشك الإقدام عليه ظهرت لها جلية وجسيمة. قال أرماندو بصوت ناعم منخفض وخطير:

ـ هذا ليس وقت إعادة التفكير، فسبب زواجنا واضح ومقبول.

ـ وهل من المفترض أن أجثو على ركبتي وأقبل قدميك عرفاناً بالجميل؟

كان صوتها كالجليد، وكان في عينيه قسوة تبعث القشعريرة.

حذّرها بطريقة خطرة:

ـ احذري... أصرُّ على أن تحافظ على الأدب في وجود الآخرين. أما عندما نكون على انفراد، فلك أن تقاتليني ما وسعك ذلك.

أجابته بغضب:

ـ على انفراد قد أصيبك ربما بأضرار جسدية!

ـ لا تتوقعي مني عندئذ ألا أردَّ عليك.

ـ إن أقدمت على عمل قبيح أرفع عليك دعوى أتهمك فيها بالإهانة والاعتداء.

تحوّل لون عينيه إلى لون بحرٍ تعصف به الرياح:

ـ لم ألمّح إلى الاعتداء الجسدي.

عندما سمعت قوله اتّسعت عيناها كبحيرة ماء فقاومت بعنف لئلا ينفجر غضبها:

ـ كلمة اعتداء كلمة بشعة، أمعنوية كانت أم جسدية.

ـ ربما إذاً عليّ أن أنصحك أن تلجمي أعصابك دائماً.

ردّت عليه بمرارة، وهي متأكدة من كونها على وشك أن تصبح ضحية جنون مؤقت:

ـ كنت مجنونة عندما وافقت على أي اتحاد معك!

قال أرماندو ساخراً:

- جوزف هو صلة الوصل بيننا.

صاحت وهي تسمع صوت التنصل من المسؤولية:

- ليس أمامي خيار.. اللعنة عليك!

- لقد عرضت عليك فرصة تخولك القيام بدور الأم له.

- المشكلة الوحيدة أمامي، أنك تشكل جزءاً من هذا الأمر!

- أوه.. قد لا يكون الأمر بهذا السوء. فأنا أعيش في منزل جميل هو وسيلتي لإظهار خبرتي في عالم البناء، وأتمتع بصحبة الأصدقاء، وأسلي نفسي دوماً. إن جزيرة نيوفوندلاند التي أقطن فيها بعيدة عن الملل، لذا ستجدين فيها التسلية التي تطلبها نفسك.

سألته:

- متى ستخبر ذويك بزواجنا؟

- لقد أخبرتهما، وقد سرّهما اتخاذنا هذا الحل المنطقي.

- وهل ستطول زيارتهما؟

- وهل هذا استجواب عن الوقت إليان؟ أم فضول؟

- إنه سؤال تقليدي، ربما عليّ أن أخلد إلى الصمت.

لو كانا وحدهما لرمت محتويات كوبها في وجهه. سألها بسخرية:

- أهو إذعان ظاهري؟ أتعلمين. أنا لا أتصورك تذعنين بسهولة.

أجابته ببرود واختصار عندما كان الساقي يحمل الطلبات «لا». وبعد ابتعاد الساقي قال لها مقترحاً:

- هلاّ أجبرت نفسك لتخبريني كم من التقدم أحرزت في تحضير نفسك؟

قابلت إليان نظراته بكراهية لم تخفها:

- لقد تمّ تدبير أمر كل شيء: مكتب الديكور وإيجار المنزل، ولم يتبقّ أمامي إلا حزم أمتعتي.

- وشراء ثوب الزفاف.

- أبيض تقليدي؟

- هل لديك مانع؟

أحست برغبة جامحة إلى الصراخ... نعم لديّ ألف اعتراض... ولكنها أجابت ببرود:

- لن يتطلب احتفال مدني مبالغة كهذه.

- هذا يسليني.

- لن أفعل والله! سأكتفي ببذلة كلاسيكية سوداء أو حمراء، أو أي شيء يفي بالغرض.

أجابها برقة خادعة:

- وهل هذا احتجاج؟ أنت تختارين بذلك تسجيل ما قد يثير تساؤلات ولدنا بعد عشر أو خمس عشرة سنة!

انفرجت شفتاها لتقول إنها بعد عشر سنوات لن تكون زوجته. بل في الواقع ستكون السنتان فترة أكثر من طويلة تقضيها معه! إلا أن صوتاً لم يصدر عنها، بل لاذت إلى

الصمت، ثم قالت بعد تفكير:

- سأوافق على ارتداء بذلة حريرية عاجية اللون أتزيا معها ببعض الاكسسوار.

- عظيم... ولكن ليس هذا ما في ذهني تماماً.

- حسناً. وهل قررت أن ترتب المهزلة بأذيال طويلة وربطة عنق حريرية أنيقة؟

- أتميلين عادة إلى المشاكسة، أم تقصدين بعملك هذا تكديري؟

- أوه... كلاهما. فلست حمامة وديعة.

اتسعت ابتسامته المتراخية:

- إن أكثر الطيور توحشاً تُدرّب ليتمتع بأسرها.

تصاعد الغضب إلى السطح جالباً معه لونه الأحمر إلى وجنتيها مما أظهر الحدّة على قسماتها:

- هذه بالضبط الملاحظات المثيرة التي أتوقعها منك! إذا كنت قد أنهيت قهوتك، أفضل العودة.

- باكراً هكذا إليان؟ أليس لديك رغبة في السهر في بادِ ليلي؟

- وما الفائدة ما دمنا على طرفي نقيض؟

توّجت ملاحظتها بابتسامة زائفة، خدعت الساقي، ولكنها لم تخدع أرماندو. فقال لها:

- ولكن لو عدنا باكراً لبدّدنا أي وهم رومانسي تولّد في خاطر المربية؟

- بما أن لا رومانسية في تحالفنا، فلا يهمني الأمر.

ثم نهضت لتسبقه في الخروج من المطعم.

في السيارة، جلست صامتة، وهي تسمع صوت حفيف الإطارات فوق «الإسفلت». قال لها أرماندو حينما أوقف السيارة قرب باب منزلها:

- سأقدم على تأمين سيارة مع سائقها ليقلّك في العاشرة والنصف صباح الخميس... ومعي رقم هاتف فتدفي إذا احتجتِ إليّ.

مؤدب، بارد، عمليّ. شعرت وكأنه يتعمد لعب لعبة خيّرة بمناورات متفردة مخطط لها بعناية. أجابته إليان ببرود:

- أشك في أن أحتاج إليك.

ومدّت يدها إلى مقبض الباب، ثم التقطت أنفاسها وهي تراه يغادر مقعده ويدور حول السيارة ليفتح بابها. خرجت بسرعة إلى خارج السيارة، ووقفت جامدة، وهي تشك في نواياه، ثم أعدّت نفسها لفرار سريع باتجاه المنزل، هذا إذا تجرأ على لمسها أو عناقها مودعاً... بل ستضربه!

سحبت أنفاساً عميقة ثم قالت: «تصبح على خير» ودون أن تنظر إلى الخلف توجهت إلى باب المنزل، حيث وضعت المفتاح في القفل، ودخلت ثم أغلقت الباب خلفها بحذر.

في المنزل، كان الدفء والنور والوداعة المعتادة حيث لا ظلال أو تعرض للأخطار.

رسمت ابتسامة على وجهها وهي تقصد غرفة الجلوس

وهناك حيّت المربية، ونقدتها أجرتها، ثم تأملت جوزف النائم وبعد ذلك أقفلت باب المنزل وتهيأت للنوم.

* * *

www.liilas.com

samra

٤ ـ زوجة بلا مستقبل

كانت مراسم الزواج المدنيّ مختصرة موجزة، ولم يكن في الحفل من مدعوين إلا المحامي الذي أضفى وجوده على إليان بعض الواقعية.

التقط مصور محترف عدة صور قبل أن يعقب المراسم حفل غداء أقيم في غرفة طعام أنيقة في أحد فنادق المدينة الفخمة.

كان الحديث بينهما قد اقتصر على الأشياء التافهة. تنهدت إليان عندما أشار أرماندو إلى وجوب مغادرة المكان والتوجه إلى مكتب المحامي هوارد ماكدونالد، ومن ثمّ إلى دائرة الخدمات الاجتماعية. وما أن خرجا إلى الرصيف حتى قال:

ـ سنستقل سيارة أجرة.

ما هي إلا دقائق حتى استدعى سيارة جلست فيها إليان صامتة، ونظرها منصب على الخاتمين اللامعين الراقدين في يدها اليسرى.

ـ هل أعجبك؟

التفتت إلى صاحب الصوت لتنظر إليه بكل سهولة:

- إن خاتماً ذهبياً بسيطاً كان سيناسبني أكثر منهما.

- لا هذا غير صحيح.

في كلامه بعض السخرية، فرسمت ابتسامة حلوة:

- لقد نسيت عامل «المظهر».

توقف التاكسي أمام المبنى الذي يقع فيه مكتب المحامي، ثم بعد خمس عشرة دقيقة أخرى، استقلا سيارة أخرى طلبا من سائقها نقلهما إلى دائرة الخدمات العائلية. وعندما عادا للظهور في شمس الشتاء الباردة كان الوقت قد تأخر.

- هل نشرب شيئاً للاحتفال؟

أحست بالرضى لأن الخطوات الأولية التي تحيط بتبني جوزف قد باتت الآن في مكانها القانوني. وجدت إليان نفسها ترفع رأسها فإذا بنظراتها تلتقي بنظرات أرماندو، ولكن الغريب أنها شعرت وكأن أنفاسها تكاد تنقطع أو كأنها بأمس الحاجة إلى بضع ساعات تقضيها بعيداً عن وجوده المزعج.

- ما زال أمامي بضعة أشياء أقوم بها. فهل يمكن أن نحتفل عشاءً؟

- سأرتب أمر نقل حقائبك وحقائب جوزف إلى الفندق، وأنا واثق أن المربية لن تمانع في تغيير المكان.

- وهل هذا ضروري حقاً؟

- لغرض الإقناع فقط. ستبدأ زواجنا بأن نكون تحت سقف واحد سواء في الفندق أم في منزلك. فأيهما تختارين؟

- اختر ما تريد طالما لن يشمل ذلك مشاركتك الفراش.

- وهل قلت هذا؟

أغمضت عينيها، ثم فتحتهما ببطء، وهي تسمع الصوت الصغير نفسه يهمس محذراً «احذري». قالت:

- لو أجرينا مقارنة لوجدنا أن حقائبك أقل إرباكاً من حقائبي وحقائب جوزف.

صمتت تراقبه وهو يستدعي سيارة أجرة تُقلهما إلى الفندق.

صعدا رأساً إلى جناحه، وقال لها على الفور:

- اخدمي نفسك بنفسك واختاري شراباً. البراد مليء بالمرطبات، هذا عدا الشاي والقهوة.

ودون أن ينتظر ردها التقط الهاتف ليعلن عن رغبته في ترك الفندق. قالت له:

- أفضل تناول القهوة.. فهل ترغب فيها؟

راحت ترتشف القهوة فيما هو راح يفرغ محتويات الجوارير والخزانة ليضعها في حقيبته.. ثم قال:

- هل لنا أن نتصرف؟

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة حينما وصلا إلى الضاحية التي تسكنها. وعندما راحت ترشد أرماندو إلى إحدى غرف النوم الإضافية شعرت بالراحة لوجود المربية. وقالت له:

- اترك حقيبتك هنا.. سأوضب لك السرير فيما بعد.

وارتفع رأسها قليلاً فالتقت بنظراته الساخرة... اللعنة

- إن خاتماً ذهبياً بسيطاً كان سيناسبني أكثر منهما.

- لا هذا غير صحيح.

في كلامه بعض السخرية، فرسمت ابتسامة حلوة:

- لقد نسيت عامل «المظهر».

توقف التاكسي أمام المبنى الذي يقع فيه مكتب المحامي، ثم بعد خمس عشرة دقيقة أخرى، استقلا سيارة أخرى طلبا من سائقها نقلهما إلى دائرة الخدمات العائلية. وعندما عادا للظهور في شمس الشتاء الباردة كان الوقت قد تأخر.

- هل نشرب شيئاً للاحتفال؟

أحست بالرضى لأن الخطوات الأولية التي تحيط بتبني جوزف قد باتت الآن في مكانها القانوني. وجدت إليان نفسها ترفع رأسها فإذا بنظراتها تلتقي بنظرات أرماندو، ولكن الغريب أنها شعرت وكأن أنفاسها تكاد تنقطع أو كأنها بأمس الحاجة إلى بضع ساعات تقضيها بعيداً عن وجوده المزعج.

- ما زال أمامي بضعة أشياء أقوم بها. فهل يمكن أن نحتفل عشاءً؟

- سأرتب أمر نقل حقائبك وحقائب جوزف إلى الفندق، وأنا واثق أن المربية لن تمانع في تغيير المكان.

- وهل هذا ضروري حقاً؟

- لغرض الإقناع فقط. ستبدأ زواجنا بأن نكون تحت سقف واحد سواء في الفندق أم في منزلك. فأيهما تختارين؟

- اختر ما تريد طالما لن يشمل ذلك مشاركتك الفراش.

- وهل قلت هذا؟

أغمضت عينيها، ثم فتحتهما ببطء، وهي تسمع الصوت الصغير نفسه يهمس محذراً «احذري». قالت:

- لو أجرينا مقارنة لوجدنا أن حقائبك أقل إرباكاً من حقائبي وحقائب جوزف.

صمتت تراقبه وهو يستدعي سيارة أجرة تُقلهما إلى الفندق.

صعدا رأساً إلى جناحه، وقال لها على الفور:

- اخدمي نفسك بنفسك واختاري شراباً. البراد مليء بالمرطبات، هذا عدا الشاي والقهوة.

ودون أن ينتظر ردها التقط الهاتف ليعلن عن رغبته في ترك الفندق. قالت له:

- أفضل تناول القهوة.. فهل ترغب فيها؟

راحت ترتشف القهوة فيما هو راح يفرغ محتويات الجوارير والخزانة ليضعها في حقيبته.. ثم قال:

- هل لنا أن نتصرف؟

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة حينما وصلا إلى الضاحية التي تسكنها. وعندما راحت ترشد أرماندو إلى إحدى غرف النوم الإضافية شعرت بالراحة لوجود المربية. وقالت له:

- اترك حقيبتك هنا.. سأوضب لك السرير فيما بعد.

وارتفع رأسها قليلاً فالتقت بنظراته الساخرة... اللعنة

عليك!.. إنني أكرهك!

- سأتفقد جوزف.

ودون أن تهمس كلمة أخرى أسرعت تغادر الغرفة، وهي تقول لنفسها إنها لن تعبأ به وإن لحق بها.

وعلى الرغم من أنها نقدت المربية أجراً لتبقى حتى وقت متأخر من المساء، إلا أنها رغبت في تغسيل وإطعام جوزف بنفسها قبل أن تضعه في مهده لينام. وهذه عادة تحبها كثيراً، ولهذه الليلة معاني خاصة، إذ لا يفصل بينها وبين أن يصبح جوزف لها إلا توقيعات قانونية بسيطة.

اقتضى الحمام والطعام بعض الوقت، ولكنها بعد نصف ساعة شعرت بأرماندو يدخل عليها مراقباً حتى قال أخيراً:

- أتسمحين لي؟

وضعت إليان بعناية فائقة جوزف بين ذراعي أرماندو، مراقبة كل حركة بعيني صقر يحضن فراخه. فأطلق أرماندو سخرية لاذعة بقوله: «لن أوقعه».

- لم أتصور أنك قد توقعه.

تمنت إليان أن يبكي جوزف معرباً بذلك عن عدم رضاه في أن يوضع بين ذراعي غريب، ولكنه لم يفعل، بل استلقى جامداً، وعيناه البارقتان واسعتان سوداوان حتى يكاد يظن المرء أنه سعيد ودهش، وربما كان كذلك فعلاً. فلا بد أنه أحسّ بالتغيير بين جسدها الغض الطري وبين جسد عمه القوي العضلات. ثم قالت ببرود:

- إنه طفل جميل.

- إنه ابن أخي... إنه ابننا.

أحست برعدة باردة تشق طريقها إلى جسمها، فكأن كلماته ثابتة قاطعة، أو كأنه بها يصدر تحذيراً صامتاً. ولكن هل دار في خلده أنها قد تطلب الطلاق ومن ثمّ حضانة جوزف من جديد!

توقفي عن هذا التفكير!.. أنت خصبة الخيال فقط؟

قالت وهي تنقل نظرها إلى الطفل:

- عليه أن يأوي إلى فراشه.

فقال أرماندو مقترحاً:

- لماذا لا تغيرين ملابسك أولاً؟ فلتضعه المربية في الفراش، ثم تأتين بعد ذلك لتفقده.

قطبت جبينها، فسارع للإيضاح «إلى العشاء».

- لست جائعة، وعليّ أن أوضب ملابسي.

- لن تتأخر.

- في هذه الحالة سأذهب لأحضر نفسي.

- وهل هذا إذعان مطلق يا إليان؟

- بل إنه عرض مشروط.

لمست جبين جوزف بشفتيها وقالت له:

- تصبح على خير يا حبيبي.. نم نوماً هنيئاً.

وما أن عادت إلى الخروج من غرفتها حتى كادت تصطدم بأرماندو، الذي سارع يقول بهدوء وهو يسير إلى جانبها نحو

غرفة الجلوس «لقد نام جوزف بسرعة».

حينما وصلت إلى الغرفة طالعتها المربية بالقول:

ـ لقد دوّن أرماندو اسم وعنوان ورقم هاتف المطعم إن حدث طارىء ما. أرجو أن تتمتعا بسهرتكما. تأخرا الوقت الذي تريدانه لأن لا مانع عندي.

كان المطعم الذي اختاره أرماندو للعشاء مكاناً حميماً، فيه مطبخ ممتاز. في بداية السهرة شرب نخب مستقبلهما فانزعجت إليان من هذا العمل، ومع ذلك ارتشفت قليلاً من الشراب وملأت فمها ببعض الطعام بطريقة آلية. أحست بالراحة عند تقديم القهوة أخيراً، ثم تنفست الصعداء عندما طلب أرماندو الفاتورة.

في المنزل قالت له وذلك بعد دقيقة من خروج المربية:

ـ سأحضر لك الفراش، ثم أنهي ترتيب ثيابي.

ـ لو أعطيتني الشراشف لفعلت ذلك بنفسي.

قالت له بسخرية:

ـ زوج مدجّن... ما ألطف ما أرى! هل بإمكانك الطبخ أيضاً؟

ـ بكل براعة... كما أنني أكوي الثياب أيضاً.

ـ إن هذا كثير.

ـ ما الكثير؟ قدراتي؟

ـ بما أنني لم أختبر قدراتك، لا أستطيع التعليق.

ـ وهل هذه دعوة لي؟

ـ أنت تعلم جيداً أن هذا غير صحيح!

وتجاوزته بسرعة متوجهة إلى الردهة:

ـ كان يجب أن تبقى في الفندق.

ـ وحدي؟

أغمضت عينيها ثم فتحتهما، في إيماءة تشير بها إلى نفاد صبرها:

ـ إذا رغبت في الاستحمام احمل معك منشفة نظيفة. تصبح على خير.

ثم أسرعت تقصد غرفتها التي ما إن دخلت إليها حتى أوصدت بابها. كانت تعبة حتى كادت تغفو في دقائق، ولكن الأفكار راحت تجول في ذهنها وتعذبها وتورقها خاصة وأنها ترى أرماندو قوة مظلمة مهددة، قاهرة.

لقد تزوجت على عجل، بدافع حبها لابن أختها.. فهل ستندم في النهاية، بعد الانتقال آلاف الكيلومترات إلى الجانب المقابل من العالم، حيث لأرماندو الأمر والنهي؟

في الصباح التالي فيما هي تصعد إلى طائرة البوينغ، أحست بالقلق، فالأميال التي سيقطعونها تقربهما شيئاً فشيئاً من وجهتهما.

توقفت الطائرة بعض الوقت في محطة قبل ركوب طائرة أخرى للتوجه إلى نيوفوندلاند.

في المطار لحقت بأرماندو الذي كان يحمل جوزف وكأنه أب رائع، ولكن الصغير راح يبكي ويصرخ.

- لقد طلبت أن ترسل لي سيارتي إلى المطار.. انتظريني هنا ريثما أحضرها من موقف السيارات.

وهزت رأسها بصمت وانتباهها موجه إلى الطفل الباكي الذي بدأت ساقاه الصغيرتان بالرفس باحتجاج صاحب طلباً للطعام.

حالما وصلت السيارة تحولت تستجيب له، أما أرماندو فذهب ليسوي مسألة نقل الحقائب التي ما إن انتهى منها حتى استوى إلى مقعد سيارة المرسيدس الفخمة انطلاقاً للابتعاد عن المطار. قال أرماندو:

- إنه طفل مفعم قوة.

- يبدو مزاجياً متطلباً كأجداده.

- الذين لا تعرفين عنهم إلا القليل.

- أوه.. لا يمكن أن تقول هذا، فأنا أعرف عنهم المزيد كل يوم.

ثم ركزت اهتمامها على إرضاع جوزف الذي ما إن انتهى من وجبته حتى ربتت على ظهره ليتجشأ، ثم مددته في مهده المحمول، واعتنت به حتى غرق في سبات عميق. بعد ذلك راحت تبدي اهتماماً بالمناظر في الخارج، فسألها أرماندو:

- أهي زيارتك الأولى للجزيرة؟

التفتت إليه:

- لقد رافقنا والدي يوماً عندما كنا في عطلة قبل عشر سنوات تقريباً.

- إذاً، ستلاحظين تغييرات عديدة.

- إلى الأفضل كما آمل؟

- هذا يتوقف على ما إذا كنت تفضلين الراحة وجو العطلة العادي، أم الزيارات السياحية في المواسم.

- أظن أن على المرء أن يعترف بتقدم البلاد.

وأخذ أرماندو يسرد عليها بعض الوقائع:

- لقد تلقت البلاد حقنات ضخمة من الأموال من الخارج. فنادق، متنجعات، ملاعب للغولف. وقد نتج عن هذا التدفق ازدهار قطاع البناء من منازل ومراكز تجارية، ومكاتب.

- وأنت كونك صاحب شركة تريد الرخام مسرور من ازدهار الأعمال.

نظر إليها بسرعة بإمعان:

- لشركتي تاريخ طويل في دورة البناء والإعمار. والغبي وحده من يفشل في مواكبة الواقع أو في التخطيط.

فيما كانت المرسيدس تتجه إلى خط الطريق الخارجي متجاوزة السيارات الباقية ظهرت ملامح تلال بعيدة، فتابع أرماندو قوله:

- في جزيرة نيوفوندلاند جسور تربط الجزر المتطورة السكنية ببعضها بعضاً.

- وهل فيها أماكن محروسة يستطيع فيها الأثرياء والمشاهير الهبوط بطائراتهم؟

- نعم هناك أماكن كهذه.

وساد الصمت من جديد، فراحت تفكر في بلادها ومنزلها اللذين يبعدان آلاف الكيلومترات عنها. لقد تمّ زواجها لغايات مشتركة ولقناعات متبادلة، فلماذا تشعر إذن وكأنها «رفاص» مشدود؟ قال أرماندو أخيراً:

ـ لقد اقتربنا.

بعد دقائق تبعته إليان إلى باحة مدخل ضخمة تبرز أمام سقف زجاجي مقوّس تتدلى منه ثريا ضخمة ترسل أضواء ساطعة صافية تنعكس على جدران بيضاء، وسجادة عاجية. وفي الوسط درجان عريضان يفضيان إلى طابق علوي، وعلى الجانبين لوحات زيتية رائعة معلقة بعناية، وفي غرفة الجلوس أثاث أثري رائع. قال لها أرماندو وهو يدخل الحقائب:

ـ أقترح عليك أن تضعي جوزف في جناحه.

اتخذ ممراً على يسارها، فتعقبته إليان، ثم قال:

ـ للجناح الرئيسي غرفة جلوس خاصة تطل على القناة...

ولوّح بيده مشيراً إلى باب يقع في المقابل تماماً:

ـ وفيه حمام، وإلى اليسار غرفة ملابس فيها خزانتين كبيرتين مثبتتين في الحائط.. وهناك مفروشات إضافية، وسرير لك أن تستخدميه حتى...

فدحت عيناها بشرر أزرق:

ـ حتى... ماذا؟

ـ حتى تصبحي على أهبة الاستعداد لتشاركيني غرفتي.

أحست بغضب كاد معه ترتجف حتماً:

ـ وهذا ما لن يكون أبداً!

ارتفع حاجباه فوق عينين كانتا تختجزان عينيها بنظرة تقويمية ساخرة. قال لها ببرودة تبعث القشعريرة:

ـ عزيزتي إليان.. عليك في سبيل زواج متكامل مشاركتي غرفة نومي.

ـ في مثل هذا المنزل الضخم هناك غرف نوم أخرى سأختار منها واحدة.

ـ هناك العديد.. ولكنك لن تقيمي إلا في غرفتي.

ارتفع ذقنها كبرياءً وتحدياً:

ـ أقسم أني لن أقيم فيها.

ـ ستقعين في النهاية نائمة. وعندما يحدث أن تقعي أنقلك بكل بساطة إليها.

صاحت به:

ـ أيها الشيطان الأخرس.. لن يكون لك ذلك.

ـ وكيف ستمنعينني؟

وخفق قلب إليان بألم، ثم أحست بتوقف قلبها. فلم يكن هناك إلا فتحة واسعة تفصل غرفة الجلوس عن غرفة النوم التي ليس بين الغرفتين باب يؤمن لها الخلوة. اندفعت تقول:

ـ أنت خالٍ من الشعور والإحساس...

لم تستطع من شدة الغضب إتمام كلامها فقد فقدت النطق ولم تقدر إلا على قول كلمة واحدة «متوحش».

لمع بريق في أعماق عينيه عاد فأخفاه بنجاح:

ـ أقترح عليك حمل جوزف إلى مهده قبل أن ينشوش تفكيره ويرتبك من شدة الغضب البادي عليك. سأتوجه إلى المطبخ لأعدّ بعض القهوة.

تملكتها رغبة شديدة في قذفه على ظهره، ولكنها عجزت عن ذلك بسبب الطفل الذي بين ذراعيها.

وضعت الطفل في المهد، ثم غطته بلطف، ولكنها تريثت بعض الوقت حتى غفا. وبعد ذلك عادت إلى غرفة النوم ومنها إلى الحمام الفاخر.

كان عليها أن تعقم زجاجات الحليب وتهيئها توقعاً لاستيقاظ الرضيع في الليل، كما كان عليها تحضير حقائبها الضرورية. فكان أن خرجت بحثاً عن المطبخ.

كان المطبخ واسعاً فخماً، مجهزاً بأحدث المعدات الإلكترونية التي لو رأتها في ظروف طبيعية لعبّرت عن سعادتها. قال لها أرماندو وهو يضيف السكر إلى القهوة التي أعدها:

ـ ستجدين ما تحتاجينه في الخزانة.

ـ شكراً لك.

فقال لها وكأنه يقر أمراً واقعاً:

ـ ثمة زوجان يقومان يومياً بالمحافظة على نظافة المنزل وما يحيط به. وقد اعتدت الاستعانة بمؤسسة تزودني بالطعام اللازم عندما أقيم الحفلات.

ـ إن من يملك هذا النظام الرائع في حياته لن يحتاج إلى

زوجة أبداً.

قال لها بخشونة:

ـ لا تعبسي هكذا يا إليان.

ـ أنا لست عابسة! أنا بكل بساطة غاضبة جداً، ولا أرغب في محادثتك.

وضعت بحركات متوترة وجبة الرضاعة التي حضرتها في البراد. فقال لها أرماندو بصلابة لا تلين:

ـ ستبقى ترتيبات غرفة نومك على حالها.

ـ لن أرضى أبداً مشاركتك الغرفة التي تأوي إليها.

لاحت ابتسامة طفيفة على طرفي فمه، وعلت وجهه نظرة ساخرة:

ـ لماذا لا تتناولين بعض القهوة؟

ـ أفضل شرب الماء.

فهز كتفيه غير مكترث، ثم احتسى ما في كوبه وقال:

ـ سأكون في الخارج غداً لأن عليّ تفقد مسار العمل في مواقع عديدة. لقد دوّنت اسم ورقم هاتف مربية أطفال مشهورة اتصلي بها إن أردت الخروج. سأترك لك مفاتيح المنزل والسيارة، إضافة إلى بعض المال.

ـ لدي مالي الخاص.

ـ اعتبري المبلغ سلفة على حساب مصروف المنزل. لا تجادلي!

ودون أن تزد استدارت لتملأ كوب ماء بارد، وبعد ذلك

خرجت من المطبخ شامخة الرأس، تعبة إلى حد لا يصدق.

- سأوي إلى فراشي.

- سأريك قبل أن تذهبي الطريقة التي يعمل بها نظام الأمان في المنزل.

بعد خمس دقائق توجهت إلى الجناح الرئيسي وجسمها يرتجف غضباً. ما إن وصلت إلى غرفة الجلوس واندست في السرير حتى أغمضت عينيها وهي تصمّ أذنيها عن صوت المياه الجارية في الحمام المجاور.

وما زادها انزعاجاً أنها عجزت عن النوم حتى بعد أن أطفأ أرماندو أضواء غرفته.

غرقت دون ريب في النوم، لأنها استيقظت بحدة تشعر بالغربة وبالضياع، فرقدت جامدة تفكر في ما أيقظها.

«ربما هو جوزف؟ ربما تشعر بالانزعاج بعد هذا السفر الطويل». خرجت من سريرها قلقة، وسارت بصمت إلى مهده.

حينما حدّقت عيناه الواسعتان إليها دون أن ترمشا، هزت إليان رأسها مبتسمة، ثم غيّرت له ودثرته جيداً. ولكنه راح يبكي ويبكي حتى غدا بكاؤه عويلاً، فحملته متمتمة له بتعومة.

- مشاكل؟

التفتت دهشة إلى مصدر الصوت فإذا أرماندو على مقربة منها.

- إنه قلق لأنه خسر وجبة طعامه الأخيرة، ويبدو أن السفر أزعجه.

- أعطني إياه وبشما تسخين له المرضعة.

- أستطيع حمله بسهولة إلى المطبخ، فلا تزعج نفسك.

- اذهبي وسخني المرضعة يا إليان.

ثم حمل جوزف بهدوء، فلما حاولت مناقشته عاد الطفل للبكاء بحدة، فتركته وتوجهت إلى المطبخ تتعثر في سيرها.

أخرج أنبوب الماء مياهاً حارة تغلي.. فسحبت يدها من تحت المياه الساخنة وعضّت على شفتها متجاهلة الألم، ثم راحت تسخن المرضعة التي حضرتها سابقاً وبعد ذلك قفلت راجعة إلى غرفة النوم.

كان أرماندو يجلس على حافة السرير يهزّ الطفل، فشعرت بغيرة لأن الطفل كان مستسلماً له.

أرادت أن تنتزع جوزف منه، وأن تخرج من الغرفة التي تضم السرير الضخم والرجل الديناميكي الذي بدا مسيطراً على كل شيء دون جهد. قالت بثبات:

- سآخذه الآن.

لمست يداها يديه فأرسلت اللمسة شحنة كهربائية في أوصالها.

فكرت في أن السبب هو الكراهية دون شك.. ثم راحت تهتم بحاجات جوزف، حتى أوشك على الإغفاء، فاطمأن قلبها خاصة وأنها غداً ستكون وحيدة مع الطفل دون أرماندو

الذي يبعث وجوده إليها الإزعاج، وتسعى عندئذ إلى استكشاف المنزل والسباحة، ولكن ستبقى هناك مشكلة لن تحلّ بسهولة ألا وهي التكيف مع زوج لا تحتاج إليه أو تريده.

• • •

www.liilas.com

samra

٥ ـ نار وجليد

لم تشعر إليان بوخز ضمير عندما كانت تتابع العناية بجوزف. وإذا كان أرماندو يصرّ على أن تشغل والطفل الجناح الرئيسي فليتلقّ القلق وعدم الراحة في ساعات متقدمة من الليل حينما يستيقظ الصغير طالباً طعامه.

عندما خرجت من الحمام باكراً، كان أرماندو على وشك الخروج من سريره. فأشاحت وجهها عنه.

ـ صباح الخير.

وضعها جوره الصباحي في حال تأهب فوري، فاشتعلت عيناها قبل أن تتجه إلى غرفة الجلوس رافضة الرد.

أفّ له! راحت ترتب السرير وهي تشتمه وتلعنه.

عندما دخلت إلى المطبخ بعد خمس دقائق، كان أرماندو قد سبقها إليه، فحملت كوباً سكبت فيه القهوة الطازجة متجاهلة أن أرماندو على وشك أن يكسر بيضة في المقلاة. قال لها:

ـ أترغبين في الفطور؟

قابلت نظرته القاتمة برباطة جأش وأجابت:

ـ لم تكد تبلغ الساعة السادسة... سأتناول شيئاً فيما بعد.

كان على الطاولة جريدة صباحية، حملتها وراحت تقرأ عناوينها، فقال لها أرماندو:

ـ هناك جهاز إليكتروني موصول بنظام «إنتركوم» داخلي شغليه للتأكد من سماعك صوت جوزف في أي غرفة كنت فيها.

ولم تستطع إلا أن تقول بمرارة:

ـ لقد كنت واثقاً من نجاحك، إذ حضّرت المفروشات الوثيرة والألعاب قبل ذهابك إلى لندن.

نقل ببراعة محتويات المقلاة إلى الصحن، ثم حمل قطعة خبز إلى الطاولة، صامتاً صمتاً أثار غضبها وجعلها ترغب في إشعال حريق كلامي، فقالت:

ـ ألن تعلّق؟

رفع نظره إليها، فكادت نظرته القاسية تميتها:

ـ ولماذا الخوض في خيالات لا طعم لها؟

ـ أتعني أنها خيالات زائفة؟

ـ أتميلين عادة إلى الجدال في الصباح الباكر؟ أم أنها طريقة لاختبار طباعي؟

لم يكن هناك شك أن له طباعاً سيئة، فلعنت نفسها على غبائها وتجرئها على إثارة غضبه. ولكن ذلك لم يمنعها من الاستمرار في إثارته:

ـ ألست معتاداً على النساء اللاتي يتجرأن على مناقشتك ونقدك؟ أعتقد أنك معتاد على الفئة التي لا تعرف الاعتراض بل الموافقة والإذعان حتى درجة الملل..

ـ هذا تعميم شامل علماً أنك تجهلين هوية صديقاتي.

ـ أوه... أنا واثقة أن هناك عدداً كبيراً من الجميلات اللاتي هنّ على أهبة الاستعداد للتخلي عن الغالي والرخيص في سبيل إيماءة اهتمام منك. أتتساءل كيف تلقين خبر زواجك المفاجىء الذي صحبه تبني طفل؟

ـ لا أفسّر عادة تصرفاتي أو قراراتي.. مفاتيح سيارة المرسيدس على الطاولة الصغيرة قرب سريري... تمتعي بيومك.

ثم هبّ واقفاً باختيال، فقالت له ساخرة:

ـ شكراً لك.

سمعت صوت الباب يقفل، ثم صوت دوران محرك، فتحرك السيارة التي ابتعدت تاركة خلفها الصمت.

فجأة أصبح النهار كله أمامها أو على الأقل ثلاث ساعات قبل أن يستيقظ جوزف، فأنهت قهوتها بسرعة واتجهت إلى البهو الخارجي للاستكشاف، ومنه إلى درج يؤدي إلى غرف النوم الأربعة والحمامات وإلى جناح الضيوف وهي جميعها مفروشة بأثاث جميل ذي ذوق رائع.

ثم عادت إلى المطبخ، فاكتشفت درجاً آخر يقود إلى غرفة غير رسمية، وإلى غرفة بلياردو، وغرفة ألعاب رياضية، وغرفة

تقارب الثامنة. قال معلّقاً وهما يجلسان إلى مائدة الطعام:

ـ إنه ممتاز.

هزت إليان رأسها بشكر صامت وقالت:

ـ وماذا كنت ستفعل لولا تحضيري العشاء؟

حدّق إليها مباشرة:

ـ أدير مربية، ثم أتوجه إلى المطعم المعتاد.

ـ لعلي لا أرغب في الذهاب.

ـ هذه مشاكسة إليان؟

لا تذكر أنها تجادلت مع أحد من قبل، حتى مع أبيها في أصعب أوقاتها. ولكن شيئاً ما يدفعها إلى المواجهة مع أرماندو، وهو دافع شيطاني ظل يرقص طرباً لما قد تسببه هذه المواجهة.

ـ ألن تعلقي؟

قابلت نظرته بالتزان:

ـ شعوري ينبئني بأن كل ما سأقوله قد يستخدم ضدي.

ـ فلتعلن الهدنة إذن!

ـ وهل ستدوم؟

ـ ربما لا.. ولكن لا بدّ من أن نخطط لنوع من العرض المتمدن أمام والدتي.

ـ ولماذا؟ إنهما يعرفان الغاية الحقيقية من هذا الزواج، فإن كنت تنتظر مني مشاركتك في عرض عواطف فانسَ الأمر.

تناول آخر ملعقة من صحنه، ثم تريث حتى تنهي ما في

طبقها ليكب لها من جديد.

ـ أفضل أن أخدم نفسي.

ـ ثمة عدد وافر من الأصدقاء والشركاء يتوقون إلى مقابلتك، لذا سأقيم حفلة السبت القادم تكون فرصة ممتازة يتعرفون فيها إليك، أما أمر الطعام فسأنظمه.

هبّت على قدميها وشرعت بتجميع الصحون، فلما تقدم لمساعدتها. قالت بخشونة: «أستطيع تدبير الأمر بنفسي» فأجابها وهو يتجه معها إلى المطبخ:

ـ سأغسل الصحون.

ـ لديك الآن زوجة تهتم بهذا. لماذا لا تستريح في غرفة الجلوس، أو تقصد مكتبتك؟

ـ لماذا؟ أتوهمي نفسك بأن لا وجود لي؟

أوه.. إنه في غاية الحذاقة! أفٌ له.

ـ أجل..!

لمعت عيناه بالسخرية:

ـ ما من أحد يستطيع أن يعلم أن وراء هذه الواجهة الهادئة شعلة من النار.

ـ لم يكن لديّ طبع سيء حتى أقحمت نفسك في حياتي!

ـ أقحمت نفسي يا إليان؟ أنا لم أجبر امرأة قط على أي شيء.

كانت مضامين كلامه واضحة ومقصودة، فأحست إليان فجأة أنها قد اكتفت من هذا كله. وضعت الصحن الذي كان

هناك، مهزومة!

صاح بها صوت صغير.. حمقاء.. حمقاء ألم يكفك ما عانيته حتى تعرضي نفسك إلى المزيد؟

وفيما هي تفكر في الإذعان عاد أرماندو الذي ردّ على نظرتها بنظرة متحدية قبل أن يدنو من السرير ليترع عنها الغطاء، ثم دون أن يتفوه بكلمة انحنى فوقها وحملها، فحاولت المقاومة وقد كرهت السهولة التي حملها بها!

- انزلني... أيها الشرير!

- تُرى متى ستتعلمين أن لا طائل من مقاومتي.

- إذا كنت تسعى إلى استسلام خنوع، فقد أخطأت!

يا إلهي! ما أقواه! فإنه يُفشل كل محاولة تقوم بها.

- إنك ساذجة. بل في غاية السذاجة، لأنك لم تدركي حتى الآن أن هناك خطراً كبيراً في الاستمرار في المقاومة.

- وهل تطلب مني حقوقك الزوجية لا لشيء إلا للمتعة؟ تُرى كم ليلة ستخصص لي أرماندو... ليلتين.. ثلاثة؟

أحست بجسده يغلي غضباً، فلمعت عيناها من الخوف، ولكنها قالت له مرتجفة:

- حسناً خذ مبتغاك، اللعنة عليك! مع أنني أشك في أن تكون راضياً مع كتلة جليد لا ترغب فيك!

أنزلها ببطء، وكأنها في شريط مصور يدور بسرعة وئيدة، فوقفت أمامه مسمّرة عُرضة لتقويم يطيء منه. كانت غلالة نومها من الساتان السميك الذي يسترها تماماً، ولكنها تحت

وطأة نظراته شعرت بها شفافة، فتصاعد الدم إلى وجنتيها.

أحست على الرغم منها بدفء غريب بدأ في مكان ما داخل كيانها وسرى ببطء حتى عمر جسدها كله. مضى وقت وكأنه دهر وقف فيه يتفرّس بها. أما هي فظلت مسمّرة في مكانها غير قادرة على أن تفهم شيئاً من تعبيرات وجهه الذي راح يخفضه باتجاه وجهها... فشهقت!

يا إلهي...! ماذا فعلت؟ أية دعوة قدمتها له؟ بقاؤها ساكنة أمامه على هذا النحو لضرب من الجنون، ولكن الانسلال من بين ذراعيه برهان على خوفها من الوقوع بين براثنه. في اللحظة التي اعتقدت أنها لن تقوى على تحمّل أي شيء آخر، شدها إليه بقوة، فتوتر جسدها وانحنى إلى الوراء مشدوداً وكأنه قوس رائع بين يدي أستاذ ماهر في الرماية.

خرجت آهة يائسة من حلقها، ثم لم تجد إلا أن كل شيء قد انتهى، فوقفت، وقد أبعدها على مدى ذراعيه، تنظر إليه بذهول وعجز. قال بنعومة وشفتاه منحنيتان بسخرية:

- كتلة جليد.. يا إليان؟

شعرت وكأن صوته وعاء من الماء البارد انسكب عليها. اتسعت عيناها فعكستا الحياء والإذلال، فيما راحت ذراعاها تطوقان صدرها خجلة من نفسها، كارهة الحرارة التي أشعلت وجنتيها. انحنى دون أن يتفوه بكلمة، ثم وضع ذراعه ثانية تحت ركبتيها... وحملها... أرادت أن تحتجّ، إلا أن هناك ما حال بينها وبين الكلام، ثم تلاشت فيها إرادة المقاومة مع

كل خطوة يخطوها فوق الدرج ليقربها من... عماذا؟ من امتلاكها؟

حينما أصبح في وسط الغرفة، أنزلها. فوقفت مترددة، تهيىء نفسها للفرار مذعورة ذعر غزال وجل. قال لها آمراً:

ـ اذهبي إلى الفراش.

أرجعت إليان رأسها وقد شحب وجهها، فقال هازئاً:

ـ إلى فراشك. قبل أن أغير رأيي فأحملك إلى فراشي.

أطبقت ثغرها، فما من قول تقوله قد يؤثر في هذا الوضع، فسارت مبتعدة عنه بأتزان وكرامة بقدر ما أوتيت منهما.

ولكن بعد فترة وجدت أن النوم هو سراب محض، فقد ظلّت يقظة تتساءل عما إذا كان ما فعله بدافع القسوة أم بدافع اللطف. ولكنها لا تتصور أبداً أن دافعه اللطف.

* * *

٦ ـ تخاف من نفسها

عندما توجّه أرماندو إلى مطار غندر لاستقبال والديه، فضّلت البقاء في المنزل مع جوزف مدّعية أنها بذلك ستمنحه الوقت اللازم لينحدثوا على سجيتهم وتمنح نفسها وقتاً لإعداد عشاء ملائم.

كان رافاييل كوريزيو نسخة كبيرة السن، طبق الأصل عن ولده. أما زوجته فبدت جليلة ومحترمة، فتساءلت إليان عما إذا كانت ستعجبهما. وليتهما يعجبان بها لأنها بأمس الحاجة إلى حليف، لا إلى عدو.

استنشقت نفساً عميقاً ثم زفرته ببطء قبل أن تتقدم من الباحة إلى حيث وقفت المرأة مرتبكة مثلها. اقتر ثغر المرأة العجوز عن ابتسامة دافئة.

ـ أنت إليان... ما أسعدني بلقائك!

ـ أهلاً بك سيدة كوريزيو.

ـ نادييني رونا رجاءً!

ثم اقتربت منها لتمسك بيدي إليان، وأضافت:

ـ وهذا كوريزيو.

تراجعت قليلاً لتمنح زوجها فرصة التقدم. عندئذ وجدت إليان أن كل شيء سيكون على ما يرام. صافحت رافاييل كوريزيو ذا اليد القوية وقد ظهرت عليها سيماء الراحة، لأن أرماندو أرسل إليها ابتسامة مطمئنة فيها دفء غير متوقع. وقال لأبويه:

ـ سأحمل حقائبكما إلى جناح الضيوف قبل أن تشرب شيئاً.

قال والده:

ـ سأساعدك.

التفتت إليان إلى روندا.

ـ تفضلي لتجلس، فسيستيقظ جوزف قريباً.

دمعت عينا العجوز:

ـ يا إلهي.. ليتك تعرفين مدى شوقي إلى رؤيته.

ـ إنه جميل جداً.

ـ أنت تحبينه كثيراً.

كان هذا تقرير للواقع، فنظرة واحدة إلى إليان تكفي. ثم أردفت العجوز بهدوء:

ـ وقد تخليت في سبيله عن كل شيء.

وكان هذا إشارة إلى تعاطفها معها.

ـ أرماندو هو ابن أبيه. تحت مظهره تختفي ثروة من العناية. أعلم أنه سيكون أباً حنوناً.. و... زوجاً عطوفاً يحميك.

وصل الابن وأبيه فقال أرماندو:

ـ لقد حان وقت الشراب، رافاييل، روندا، ماذا تفضلان؟

تصورت إليان أن الأمور ستكون رسمية، ولكن مناداة أرماندو والديه باسميهما الأولين أدهشها.

أجابه رافاييل وهو يجلس قرب زوجته:

ـ أريد شرابكم المفضل في نيوفوندلاند. إنه منعش وخفيف.

قالت روندا وهي تبتسم:

ـ أما أنا فسأستعيض عنه بالمياه المعدنية لأنني لا أقوى على احتساء شيء آخر.

ـ وأنت يا إليان؟

ـ مياه معدنية أيضاً.

ـ هل تفضلين الشاي أو القهوة؟

ـ يا عزيزتي... لا... شكراً لك.

استيقظ جوزف بعد دقائق، يتعالى بكاؤه عالياً عبر جهاز الإنتركوم، فوضعت إليان الكأس من يدها ووقفت:

ـ سأغيّر له، ثم أحمله إليكم. إلا إذا رغبتِ في مرافقتي يا روندا.

أجابت العجوز على الفور «سأحب هذا كثيراً». ثم لم تلبث المرأتان أن خرجتا من غرفة الجلوس إلى الردهة. وما إن وصلتا إلى غرفة جوزف حتى كان وجهه محمراً وغاضباً. تمتمت روندا بصوت خفيض بعد ما تحوّل صراخه إلى ابتسامة

مبللة بالدموع «أوه.. أيها الحبيب الصغير».

- إنه محتال صغير... هيا يا حبيبي إلى الطعام.

رقص بقدميه بشكر صامت، فضحكت روندا.

- كان جوزيبو يفعل ذلك أيضاً.

أحست إليان بالأسى على المرأة العجوز.

- هل تريدين حمله؟ ربما تحسين إطعامه بنفسك في غرفة الجلوس.

اغرورقت عينا العجوز بالدموع «شكراً لك».

أدمى منظر الجدين قلب إليان، فحبست دمعها لئلا ينهمر من بين جفونها. كان الطفل بين أذرعهما صامتاً يتأمل هذين الغريبين.

بعد ساعة، أعيد الطفل إلى مهده، ورجعت روندا إلى غرفتها لتتعش نفسها ربما تضع إليان اللمسات الأخيرة على وجبة العشاء.

كانت قد اختارت تقديم مرق الدجاج، يعقبه الدجاج المشوي مع تشكيلة من الخضار والفواكه الطازجة. وبما أن ذوقها لا يستسيغ هذا الطعام أضافت الجبن والزيتون والعنب.

كانت الوجبة ناجحة استطاعت من خلالها الإحساس بالراحة خاصة وأن توترها قد زال. قال أرماندو لوالديه وهم يحتسون القهوة في غرفة النوم:

- بعد ظهر غد سأقلكما إلى المدينة لأوصلكما إلى الشقة على أن نتعشى في المساء معاً.

انتفضت إليان، وأحست بعينيها تتسعان دهشة، فأسرعت روندا توضح لها:

- لأرماندو شقة في قلب مدينة غندر، سنسكن فيها أنا وراقابيل حتى سفرنا إلى لوس أنجلوس لنزور شقيقتي.

حاولت إليان الاحتجاج، ولكن روندا سارعت إلى القول:

- أجل يا عزيزتي.. نحن نحب أن تكون مستقلين، كما نحترم استقلاليتكما. فالظروف التي أحدقت بزواجكما غير عادية. تحتاجين وأرماندو إلى قضاء بعض الوقت على انفراد.

ووقفت روندا:

- والآن، هل تسمحان لنا بالتوجه إلى غرفتنا طلباً للراحة.

ارتجفت ابتسامتها قليلاً وهي تنقلها من زوجها إلى ابنه وتابعت:

- لقد كانت رحلة طويلة أتعبتني حقاً.

ووقفت إليان وقد رق قلبها لقلق العجوز الظاهر:

- بالطبع... إن كل ما قد تحتاجين إليه موجود في الجناح.

- شكراً لك يا عزيزتي.

بينما كان والدا أرماندو يتوجهان إلى جناحهما سارت إليان بأدب إلى جانب أرماندو الذي التفت إليها قائلاً:

- سأعد المزيد من القهوة. أمامي ساعات من العمل في المكتبة.

- بقيت كمية كبيرة منها في الغلاية. سأسخنها في

لحظات، ثم أجليها لك إذا أحببت.

أحنى رأسه موافقاً، ثم توجه إلى مكتبه، وما هي إلا دقائق حتى حملت إليه فنجان يتصاعد منه البخار والرائحة اللذيذة، فنظر إليها قائلاً:

- ما رأيك بوالدتي؟

- لم أكد أتعرف إليهما.

- لقد أعجبتك روندا... فماذا عن والدي؟

- يبدو لطيفاً.

- ألطف من ابنه؟

تغيرت ملامحها المؤدبة:

- أجل.. أشعر بك مسروراً بنفسك لأنك طاغية غير متمدن!

- وماذا ستقولين تالياً؟

- آوه.. سأفكر في شيء آخر!

- لا أشك في هذا أبداً.

ارتدت على عقبيها لتخرج من الباب، فقال:

- تصبحين على خير إليان.

كاد النهار في اليوم التالي ينتصف عندما نزل رافاييل وروندا إلى الطابق الأرضي، وقد تزامن نزولهما مع عودة أرماندو إلى المنزل. وبعد وجبة مريحة، تولت روندا العناية بحفيدها فأطعمته ثم وضعته في المهد ليأخذ قيلولته.

أثناء احتساء القهوة استطاعت إليان التعرف إلى حماتها

أكثر وقد انفتح قلبها لها فراحت تقص عليها تفاصيل حياة أليتا. وبعد حديث مطول عرضت خلاله عليهم بعض صور أليتا، قالت بصوت هادىء:

- سأحضّر لكم الشاي...

وعندما أنهت التحضير، وضعت كل شيء على طاولة متحركة وجرّتها أمامها إلى غرفة الجلوس، وهي تفكر في براعتها في الخداع، فلو كانت ممثلة لأحرزت بتمثيلها هذا التصفيق والاستحسان من النظارة.

تشعّب الحديث إلى مواضيع عدة. وما كادت الساعة تشرف على الرابعة حتى وقف أرماندو تعبيراً عن نيته في إيصال روندا ورافاييل إلى الشقة في المدينة.

بعد مغادرتهم، أعادت بسرعة ترتيب غرفة الجلوس، فوضعت الفناجين في الغسالة. ثم توجهت إلى غرفة النوم لتستحم قبل أن يستيقظ جوزف.

جذب صرير الباب الأمامي انتباهها، فالتفتت فإذا بأرماندو يدخل إلى الغرفة.

- ستصل المربية في السادسة.

هزت رأسها، فنظر إليها باستغراب:

- هل هناك مشكلة في هذا؟

- لا.. أبداً.

- إذاً لماذا العبوس؟

- لا أعبس إنما أرفض أن تشرّحني قطعة قطعة أمام

والديك، لمجرد التسلية!

ارتفع حاجباه واستعاد فمه التواء السخرية المعتاد:

- إلى ماذا تشيرين بالضبط؟

- أنا لم أكن أتفرج عندما خرجت أنيتا تطلب المرح.

- ولكنك حملتِ المسؤولية عنها. وما ذلك إلا لأنك الأخت الكبرى، ولو كان والداك على قيد الحياة لما وضعت على عاتقك هذه المسؤولية.

- إذا كنت تشير إلى أنني فرضت نفسي عندما لعبت دور أم جوزف فأنت مخطىء.

- أخبريني إذن عما كنتِ تفعلينه خارج أوقات عملك؟

- أنا لست مدينة لك بالتوضيح.

- إذاً لماذا غضبتِ عندما قلتُ إنك وضعت المسؤولية على عاتقك لأنك الكبرى؟

- لأنك بهذا تلمّح إلى عدم وجود نشاط اجتماعي في حياتي. وهذا غير صحيح.

- لقد كنت تخرجين إذن متمتعة بصحبة الرجال؟

- أجل... وماذا بعد يا أرماندو... هل أعدد لك أسماء بعض الأصدقاء والصديقات القدامى؟

- وهل كان في حياتك العديد؟

- لا يحق لك أن تسأل.

- ترى هل تشكين في قدرتي على إرضاء رغباتك؟

لقد تحولت دفة الحديث بينهما إلى ناحية خطرة

فاضطربت إليان وتقلصت معدتها:

- ماذا تريد مني؟ أتطلب أن أقوم بواجباتي الشرعية كزوجة؟

- عزيزتي إليان. هل تعتبرين ذلك واجباً؟ أرى أن تجربتك إما محدودة وإما من كنت على علاقة بهم كانوا في غاية الأنانية.

تصاعد الدم إلى وجنتيها. فمدّ يده ببطء ليجذبها إليه، والصقها به ممسكاً خصرها بشدة. شعرت معه بالتوتر يسري في جسدها. ما أسهل الذوبان بين ذراعيه، ولكن إليان تجاهلت الإنذارات التي كانت في رأسها لتحذرها مما قد يحصل.

ولكن بكاء الطفل تصحبه حازوقة أيقظتها من مشاعرها الدافقة... فقد كان جوزف صاحياً يطالب بوجبة طعامه. فتمتم أرماندو وهو يتركها «أمر مؤسف!»

حملت جوزف لتغير له. ثم قصدت المطبخ حيث سخنت الزجاجة ثم أطعمته. إنه يستحق كل شيء، حتى الزواج بأرماندو كوريزيو. فهو طفل جميل يستحق الرعاية والعناية.

خلعت روبها بسرعة، ثم ارتدت ثوب السهرة الحريري. بعدذلك دسّت قدميها في حذاء أنيق عالي الكعبين وسرّحت شعرها بسرعة، ورشّت كمية كريمة من عطرها المفضل في مواضع عدة قبل أن تقف وتراقب نفسها في المرآة.

تعالى رنين جرس الباب من الإنتركوم. فخرج أرماندو من

غرفته.

ـ هذه ميريان، إنها تلميذة حقوق، كُبرى أخواتها الخمس، وهي إلى ذلك قديرة... سأدخلها.

حالما قابلتها إليان شعرت بالراحة والطمأنينة. قال أرماندو لميريان المربية:

ـ دوّنت لك رقم هاتف المطعم والشقة... سنعود حوالى منتصف الليل. وإن كنا سنتأخر أكثر أتصل بك.

بعد خمس عشرة دقيقة كانا في سيارة المرسيدس التي انسابت بهما على الطريق الساحلية المؤدية إلى قلب مدينة نيس.

ـ أين ستعشى؟

ـ في الهيلتون، وهو يقع على شاطىء البحر.

فقالت ساخرة:

ـ حيث المشاهير دون شك.

ـ لقد أحبت روندا هذا المنتجع عندما جاءت مع والدي السنة الماضية. وبناءً على طلبها سنتعشى هناك الليلة.

وكان عليها أن تعتذر، ولكن الكلمات خانتها، فجلست صامتة حتى توقفت السيارة أمام مجموعة من الأبنية السكنية المطلة على المحيط.

كانت الشقة أكبر مما تصورت. تشرف على منظر الساحل المترامي حتى البعيد بروعة فريدة، وتقبع تحت السماء المخملية اللامحدودة، فبدت وكأنها واقعة في أرض الخيال

السحرية. علّقت روندا بهدوء:

ـ تبدين مذهولة يا عزيزتي.

ثم تناهى إليها صوت أرماندو الساخر:

ـ أجل... إنها دهشة.

فضّلت تجاهل تعليقه فقالت:

ـ شكراً لك.

قالت روندا:

ـ أتفضلين احتساء شراب ما في الشقة أم نتظر حتى نصبح في المنتجع.

ـ بل نتظر قليلاً حتى نصل إلى المنتجع.

ابتسمت روندا وقالت:

ـ يجب علينا التوجه إليه نهاراً لأن هناك على طريقه مجمّع "المارينا" التجاري.

قال رافاييل لإليان:

ـ زوجتي تعشق التبضع.

ما إن وصلوا إلى مكانهم المنشود حتى اتخذوا لهم طاولة. قال أرماندو موجهاً الحديث إلى زوجته:

ـ لا تشعري بالحرج يا عزيزتي. اطلبي ما تشائين.

ـ أنا لا أشرب إلا المرطبات والعصير.

وابتسمت روندا «وأنا أيضاً».

ـ في هذه الحالة. سنذللكما معاً وقت العشاء.

بعد ذلك أملى على الساقي طلباتهم، ثم تراجع في كرسيه

وقد بدا عليه السرور.

أما إليان، فقد كانت مستعدة للتخلي عن أي شيء في سبيل التخلص من توتر أعصابها الذي جعل معدتها تتقلص، ولكن من الجنون ما تشعر به من توتر بل من الجنون خوفها من هذا الرجل الجالس قبالتها على بعد ذراع.

بدا واضحاً أن العجوزين مسروران باجتماعهم العائلي هذا وهما كما يظهر موافقان على «كتمهما»، وأحست إليان بأسف عميق على أنيتا التي لو كانت على قيد الحياة لما وجدت أفضل منهما حموين.

• • •

www.liilas.com

samra

٧ ـ البربري

كان موقع المطعم ممتازاً، والطعام رائعاً ولكن إليان كانت قد فقدت شهيتها رغم انبعاث رائحة الحساء اللذيذة ورائحة اللحم والقريدس.

بعد قليل أحست بالراحة، على الرغم من اهتمام أرماندو الكبير بها، وشعورها حين لمست أصابعه أصابعها أنه يحاول عامداً إغواءها.

وبسبب هذا التحرش غير المرئي للعيان، شعرت بالراحة حينما طلب رافاييل منها مرافقته إلى حلبة الرقص. رمقت إليان روندا بنظرة متسائلة:

ـ هل تمانعين؟

ـ بالطبع لا يا عزيزتي، سأنضم إليكما أنا وأرماندو.

وكان رافاييل متطلباً قليلاً كابنه، وهو أيضاً رجل فاتن صادق مهذب، يراعي مشاعر الآخرين، فتشعر المرأة معه بالأمان. قال لها مادحاً وهما يرقصان:

ـ أنت خفيفة على الأرض كالريشة، ورشيقة كذلك.

ـ أنت رقيق رائع.

- وأنت لطيفة جداً.

وهل أنا لطيفة!... لا لست لطيفة أبداً مع ولدك...

قالت له:

- هل تتمتع وروندا بهذه العطلة؟

- يا عزيزتي، لا أعرف كيف أشرح لك ما نشعر به من فرح بعد اكتشافنا أن جوزيبو قد أنجب ولداً! كان جوزيبو عزيزاً على قلبينا، لذا بات وجود ذلك الصغير مهماً جداً.

تناهى إليهما فجأة صوت عميق قطع عليهما رقصتهما.

- هل تتبادل الرفقة؟

أحست بالاضطراب مجدداً لأنها فكرت في أن ذراعي زوجها تحيطانها ثانية. ولكنه لم يحطها بذراعيه فحسب، بل ضمّها إليه ضمة قوية غير عادية حتى ودّت لو تصرخ من الغيظ. قالت له بصوت منخفض، وقد أغضبتها طريقة عناقه لها على حلبة الرقص:

- هل عليك أن تفعل هذا؟

- أن أرقص مع زوجتي؟

- وهل تسمي هذا «رقص» يا أرماندو؟ ليتك تعرف شدة رغبتي في صفعك!

- يا الله! وماذا ستفعلين إذاً عندما أطالب بحقوقي. هل ستقتلينني؟

- سأحاول جاهدة أن أفعل ذلك.

اسودّت عيناه وقد زال منهما المزاح:

- نعم... نعم أنت تتمنين قتلي!

- هلاّ رجعنا إلى الطاولة؟

وابتعدت عنه في محاولة يائسة للتخلص من قبضته الحميمة، فقال لها:

- ستستريح الفرقة الموسيقية بعد قليل، وهناك والداي اللذان ما زالا يرقصان. فهل من اللائق العودة دونهما؟

كان صوته حاراً قرب أذنها، وأنفاسه ناعمة على صدغها، تداعب بضع شعيرات هناك.

- لديّ بداية صداع.

- أهو صداع أم ادّعاء صداع؟

لمعت عيناها:

- وهل يهم الأمر حقاً؟

تصاعد غضبها، فتركته وقفلت راجعة مبتعدة عنه ما وسعها ذلك. لم يكن الصداع ادّعاء لأن الآلام في الواقع راحت تغزو رأسها، وعزت السبب فوراً إلى زوجها.

توجهت إلى غرفة الزينة الخاصة بالنساء لتتمالك أعصابها، ثم بعدما تمالكت زمام نفسها عادت إلى المائدة، فبادرتها روندا:

- عزيزتي.. هل أنت بخير؟

واجهت ثلاثة أزواج من العيون القلقة بابتسامة:

- أجل.. شكراً لك.

- ولكنك شاحبة، فهل أنت واثقة من أنك بخير؟

قالت شارحة الأمر:

ـ يستيقظ جوزف عادة في الليل مراراً فأقلق.

ـ كان جوزيبو مثله عندما كان في مثل عمره. ملاكاً نهاراً ومزعجاً ليلاً. سيتجاوز هذا قريباً.

قال أرماندو:

ـ ولكن في الوقت الراهن يسبب لنا الإزعاج.

اللعنة عليه! ألا يخجل؟ ألا يلوذ بالصمت في حضور والديه؟ قالت لها روندا:

ـ حدثيني عن الحفلة التي تخططان لها.

فهمت إليان أنها محاولة لتغيير الموضوع، ولكن أرماندو أمام دهشتها هو من تبرّع للتحدث عنها.

ـ إنها عبارة عن حفلة تُقام للتهنئة بالزواج، وهي إلى ذلك توفر فرصة تسمح للأهل والأصدقاء مشاركتنا فرحة زواجنا.

أحست بمعدتها تنقبض بألم. كيف يجرؤ على قول شيء سخيف كهذا؟ قالت زوجة أبيه:

ـ إنها فكرة رائعة!

سيطرت إليان على غضبها وحافظت على أعصابها طوال السهرة، وأثناء العودة بالسيارة إلى الشقة التي يمكث فيها العجوزان حالياً.

ـ هل تنضمان إلينا لشرب القهوة؟

سمعت إليان أرماندو يعتذر فكتمت أنفاسها:

ـ لقد تأخر الوقت ونحن نتوق للعودة إلى المنزل. المربية

قديرة، ولكنها المرة الأولى التي نترك فيها جوزف تحت رعايتها.

ابتسم الجميع ثم ودّعوا بعضهم بعضاً وكانت العجوز قد دعت إليان للانضمام إليها غداً.

حالما انطلقت السيارة بها وبأرماندو انفجر غضبها.

ـ أنت لا تطاق!

ـ ولماذا، على وجه التحديد؟

فتحت يدها وراحت تعد على أصابعها:

ـ لقد تعمدت الإيحاء بأننا ننام في غرفة واحدة، وعندما أعلنت عن الحفلة كنت تتوقع مني الموافقة وكأنني عروس خجول.

ـ يا عزيزتي، أما زلت تخجلين؟

ـ لقد استخدمت الكلمة للتشبيه فقط.

ـ آه.. بالطبع.

ـ أوه.. لا تكن مرعباً لعيناً هكذا!

ـ إذا كنت ترغبين في القتال، فتريثي أقله حتى نصل إلى المنزل.

أشاحت وجهها عنه مدعية الاهتمام بالمناظر التي يمران بها. وكان قد اختار الطريق المحاذية للشاطىء، فتساءلت عما إذا كان يتعمد إطالة الطريق حتى تهدأ أعصابها.

قالت لهما ميريان إن جوزف لم يتحرك في مهده حتى، ثم استلمت النقود التي وضعها أرماندو في يدها قبل أن تخرج.

قالت إليان بعجل: «سأتفقد جوزف»

ـ أهو عذر للتهرب يا إليان؟

ـ لا.. اللعنة عليك!

ـ سأحضّر القهوة.. والحليب؟

ـ أنا ذاهبة إلى النوم.. لقد أتممت واجباتي هذه الليلة. تصبح على خير.

ـ وهل اعتبرتِ سهرة رونذا ووالدي واجباً؟

أغمضت عينيها ثم فتحتهما:

ـ إنهما رائعان، ولكن ابنهما ليس مثلهما أبداً.

ـ حقاً؟ ربما تفضلين تفسير هذا القول؟

ـ تتصرف وكأنني زوجتك!

ـ يا عزيزتي إليان، في حوزتي شهادة زواج تنصّ على أنك زوجتي!

ـ أنت تفهم ما أقصد!

ـ وهل يزعجك أن أظهر لك بعض العاطفة الزوجية؟

ـ أستطيع القبول بالاهتمام الدمث فقط، وأما اللمسات الحميمة فأرفضها.

ابتسم بخبث:

ـ ولكنني لم أبدأ حتى الآن باللمسات الحميمة.

طارت يدها تطلب صفعة، ولكنه التقطها قبل أن تبلغ غايتها.

ـ أتتوقين إلى صفعي؟ ألا تخشين من العقوبة التي قد

أنزلها بك؟

جذبها إليه، فردت عليه بتحدٍّ:

ـ وهل أنت متخصص بضرب الزوجات أرماندو؟

ـ أختار عادة ما يتسجم وأخلاقي.

ـ لا أستطيع حتى أن أسألك ما هو!

ـ وهل هذا نابع من الشجاعة أم من السذاجة؟

ـ أوه، الاثنان معاً.

وشهقت عندما مد يده ليحملها:

ـ ماذا تظن نفسك فاعلاً؟

ـ أحملك إلى فراشي.

ـ لا تفعل! أرجوك!

ـ وكأنك خائفة.

ـ أكرهك!

أنزلها في غرفة النوم على قدميها، فوقفت عاجزة إلا عن التسمر تحت نظرته القاتمة.

ـ أنت تتجاوبين وكأنك قطة قلقة تنفشين شعرك وتمدين مخالبك، وأنا أنتظر أن أسمع خريرك.

ـ مغرور... وماذا يجعلك تعتقد أنني قد أفعل؟

ولم يتنازل للإجابة. بل لم يكن لديها مجالاً لتفادي عناقه الشغوف فصاحت به وهي تقاوم:

ـ أرماندو...

ـ لا تقاومي.

ولم يكن سهلاً عليها تقبل الإثارة والخوف اللذين اعتملا نفسها في آنٍ واحد. فكان أن تجمّدت لا تقدر على المقاومة، ولكنها حاولت الاحتجاج وهي تعلم أنه لن يتراجع وقالت بيأس:

- أنت لا تعني هذا حقاً.

أطبقت يداه على خصرها، فاحتجزتا أنفاسها داخل حلقها، فيما راحت الانفعالات تتفاعل وتسري في جميع أنحاء جسدها حتى غمرها شعور متوتر جعلها عاجزة...

أحست إليان أنها تطفو فوق غمامة من الأحاسيس عالية، فيما جسمها يتجاوب معه. فجأة ما عادت تهتم بأي شيء يدور حولها في العالم...

وعندما أفاقت على نفسها صاحت به يائسة:

- أيها النذل..! أكرهك! هل تفهم؟

- توقفي أيتها الغبية الصغيرة. أنت تزيدين الأمر سوءاً.

- ابتعد عني.. اللعنة عليك!

- اهدئي أيتها القطة البرية.

- أرجوك اتركني...

- اهدئي فقط، وثقي بي.

وصاحت به غاضبة وكل همها التحرر من قبضته:

- ولماذا أثق بك؟

- عليك ذلك.

- اتركني وشأني إذاً.

ثم راحت تدريجياً تعود إلى طبيعتها، ولكنها كانت تشعر بعودة الكراهية إلى البروز بسهولة. وأرادت أن تبتعد عن الفراش الكبير وعن الرجل الذي ينام فيه.

- إلى أين؟

- أريد أن أستحم.

توجهت إلى الحمام الذي أغلقت بابه وراءه ثم سعت إلى المغطس فوضعت سدادته قبل أن تفتح الحنفيات. وعندما غمر الحمام بالبخار أضافت زيتاً خاصاً إلى المياه، ثم همّت أن تخلع ثوبها ولكن دخوله عليها ردع يديها عن إكمال ما تريد.

قالت له وهي تراه ضاحكاً:

- ألا ترى أنني أريد الانفراد بنفسي؟ لا تنظر إليّ هكذا.

- ولماذا أمتنع عن النظر إليك؟ أنت زوجتي.

- زوجة بالإكراه. لقد أكرهتني على ما لا أريد.

ارتفع حاجبه متعجباً:

- وهل كرهتني لأنني أول من أثار أحاسيسك؟ أم كرهتِ نفسك لأنك تجاوبت مع من تعتقدين أنك تكرهينه؟

صدق كلماته أمر رفضت الاعتراف به، فأجابته:

- لقد تصرفت معي وكأنك.. بربري... حيوان! لن أسامحك أبداً.. أبداً!

- وهل لي أن أسأل لماذا؟

فقالت بمرارة:

- كنت أفضل طريقة أقل وحشية.

ـ لم يكن لديّ وسيلة أخرى أمام تمنّعك.

نظرت إليه نظرة غاضبة ثم تركت الحمام قاصدة غرفة النوم، فتبعها وهو يقول:

ـ ستنامين معي يا إليان، فلا تجادلي.

وقبل أن تصل إلى غرفة الجلوس، وصل إلى جانبها، ولم تعد مقاومتها فعّالة بعد رفعها بهدوء بين ذراعيه وحملها إلى السرير الواسع.

ـ لا أريد أن أنام معك.

ـ ربما لا... ولكنني أصرّ على ذلك.

ـ أيها الطاغية اللعين!

ـ يا عزيزتي إليان! لديّ طرق عديدة أجعلك بها تصرفين طاقتك عوضاً عن تضييعها بالقتال معي.

تجمّدت حينما فهمت مضامين كلامه، فصاحت بعنف:

ـ لن تستخدمني أو تستغلني متى شئت و...

ـ أترغبين في الجدال؟ أمامي غداً يوم عمل طويل قد يطول اثني عشرة ساعة، لذا أنا لا أفكر إلا في اكتساب بضع ساعات من النوم. إلا إذا كان لديك أفكار أخرى أنا على أهبة الاستعداد للإجابة عنها بكل سرور.

قالت له:

ـ أوه.. اذهب إلى الجحيم!

أما هو فمدّ يده وأطفأ نور الغرفة..

بعد لحظات أحست إليان بدفء أنفاسه قرب رأسها،

فاستلقت دون حراك. تتمنى لو تهدأ أعصابها قليلاً، ولكن ما هي إلا دقائق حتى راحت أجفانها تثقل مؤمنة لها بذلك نعمة الراحة.

• • •

٨ ـ كاذبة

استطاعت إليان في الأيام القليلة التالية التعرف أكثر إلى روندا التي كانت تصل صباح كل يوم في وقت محدد لمساعدة إليان بتغسيل جوزف وإرضاعه قبل أن ترجعاه إلى مهده لينام.

وكانتا بعد ذلك تجدان متسعاً من الوقت لتناول الشاي الصباحي وللتحدث حتى يحين أوان وجبة غداء خفيفة قبل العودة إلى جوزف، وكانتا بعد ذلك تتركانه في رعاية ميريان فترة بعد الظهر التي تقضيانها في استكشاف مجمعاً من المجمعات التجارية المنتشرة على طول ساحل الجزيرة السياحي.

أما رافاييل فكان ينضم إلى ابنه للقيام بجولة على مواقع العمل، حيث يعقد الابن اللقاءات والمشاورات ويعودان معاً إلى المنزل كلّ مساء.

كان العشاء عادة وجبة غير رسمية، تتشارك المرأتان في تحضيرها.

أحست إليان مع مرور الوقت بأنها تحسد أرماندو على علاقته الوطيدة بوالديه. وقبما كان جزء من تفكيرها يتمتع

برفقتهما، كان الجزء الآخر يحذرها من إقامة علاقات وطيدة مع شخصين قد لا يجدان من السهل بعد الطلاق من أرماندو أن ينظرا إليها بعطف.

أما الليالي فكانت شيئاً مختلفاً، لأنها لم تعد ساكنة بين ذراعي أرماندو بل كانت تتجاوب معه حتى بدأت تكره جسدها الخائن بالمقدار الذي تكرهه هو.

عندما اقترب موعد الحفلة وجدت الترتيبات كما ذكر أرماندو غير معقدة، فبعد عدة اتصالات هاتفية بالضيوف وبعد عدة اتصالات بمطعم يقوم على خدمة المنازل تمّ كل شيء بسهولة، ولم يبقَ أمامها إلا أن تطلب من ميريان الاعتناء بالطفل، وأن تختار ثوباً مناسباً للاحتفال.

يوم الحفلة توقعت وصول الضيوف ابتداء من الثامنة، وقد جعلها انتظارها ذاك تتوتر حتى تمنت لو تمضي السهرة بسرعة ليتهي كل شيء. إذ كانت تخشى أصدقاء أرماندو الذين سيعملون طوال الوقت على انتقادها، وما من شك أنهم سيشرحونها قطعة قطعة من قمة رأسها حتى طرف حذائها الأنيق.

بعد ساعات قليلة، أقرّت إليان أن كل شيء في هذه الحفلة في غاية الجودة. فراحت تنتقل من جماعة إلى أخرى في ظل الموسيقى الناعمة الصادحة عبر نظام إلكتروني معقد، كما راح الموظفون المستأجرون يطوفون بين الضيوف بسهولة المحترفين، يقدمون الصواني المليئة بالأطعمة والمقبلات

الشهية وبالشراب، وكأنها من معين لا ينضب، وقد تمّ في هذا الوقت تقديم إليان إلى العديد من الناس حتى استحال عليها تذكّر أكثر من بضع أسماء. بدت النساء الجميلات الأنيقات عازمات على اكتشاف آخر الشائعات الاجتماعية، فيما وقف الرجال في مجموعات منفصلة بغية الحديث عن الأعمال.

ـ حبيبتي يجب عليك حقاً المجيء...

أعادت إليان انتباهها إلى الشقراء الرائعة التي تابعت بإصرار:

ـ إنه مزاد خيري رائع يستحق حضورك، فالعارضات رائعات الجمال، والثياب ستكون مذهلة.

لمعت أسنانها البيضاء المتكاملة بين شفتيها الحمراوين الجميلتين، وتابعت كلامها:

ـ ستكون إيزابيل هناك، وكايسي وبات وميلاني، وستجلسين معنا بالطبع.

أجابت إليان بأدب:

ـ هل لي أن أبلغك فيما بعد؟

ـ بالطبع... أرماندو يعرف رقم هاتفي.

وما هي إلا لحظات حتى أصبحت إليان وحدها، ولكن ليس لمدة طويلة:

ـ هل أنت بحاجة لنجدة؟

اعتلت شفتيها ابتسامة حارة وهي ترحب (بحماتها).

ـ كيف حزرت؟

ـ كل شيء يسير بشكل جميل أما أنت يا عزيزتي فرائعة...

ـ أنا محطّ أنظارهم جميعاً وهي تقوم على تحليلي وتصنيفي بدقة... وكأنني قطعة ثمينة من البضائع. هل سأجتاز الامتحان، ما رأيك؟

ـ ستجتازينه بأعلام خافقة.

أسرعت إليان تحتضن رونلدا بشغف وتقول لها شاكرة:

ـ آه.. أنت حليفتي.. يبدو أنني سأضطر للانضمام إلى الجمعيات الخيرية وإلى المشاركة بلعبة التنس مرتين أسبوعاً وبألعاب رياضية أخرى يومياً، كما يبدو أنني سأشارك في حضور دروس أسبوعية تتعلق بترتيب الزهور. أما معظم ساعات النهار فسأقضيها في زيارة المزينين أو بالتبضع أو، وهذا الأهم، بالانضمام إلى حفلات العشاء أو الانضمام يوم الأحد إلى اجتماع غير رسمي.

ـ وكأنك متشوقة للانضمام إلى الدائرة الاجتماعية؟

ـ ليس إلى مدى كبير. فقد أقبل مثلاً بعض الدعوات... لقد دعتني شقراء مذهلة، تسيت اسمها إلى عرض أزياء يوم الثلاثاء.. ربما نذهب معاً؟

ـ رائع.. سنمنح بذلك رافاييل فرصة ليمضي يومه في حقل الغولف. أتعلمين.. أرماندو وجوزف محظوظان بك.

وجاءها صوت أليف من خلفها:

ـ أنتما خارج الدائرة الاجتماعية.

تحدث عن الشيطان.. تجده! أدارت رأسها ببطء نحو أرماندو وابتسمت له بإشراق:

ـ كدت لا أشعر بغيابك.

أما رافاييل فقال وهو ينظر إلى زوجته ممازحاً:

ـ أظن أن هذا نوع من العتاب غير المباشر.

فأجابته روندا بدبلوماسية مهذبة:

ـ كنت وإليان نسلي بعضنا بعضاً.

تدفق صوت دافيء تشوبه لكنة خفيفة:

ـ أرماندو.. حبيبي! لقد تأخرنا عن الحضور، ولكن يراد تأخر في الرجوع من عمله ثم أسرعنا إلى هنا. قل إنك سامحتنا؟

التفتت إليان إلى المرأة التي أقل ما يقال عن مظهرها إنه «ملوكي». كانت ترتدي سروالاً حريرياً قرمزي اللون، وتتزيا بجواهر تضع اللمسة الأخيرة على هندامها الذي لو ارتدته سواها لبدا سخيفاً.

ـ سيسيليا.. يراد اسمحا لي أن أقدم زوجتي، إليان.

انصبّت عيونهما على إليان فوراً. قالت سيسيليا بصوت منخفض:

ـ إنها تبدو رائعة يا حبيبي... أليست كذلك؟

ورمضت عينا أرماندو بفرح صامت:

ـ إنها كذلك، بشكل لا يصدق!

قال الزوج باستسلام:

ـ سيسيليا... أنت لا تطاقين.. ألا ترين أن الفتاة المسكينة تكاد تجن من التوتر.

سألتها سيسيليا، وهي تحدق إليها بعينين دافئتين:

ـ صحيح؟

قالت إليان معترفة وهي تبتسم:

ـ أشعر أنني حمل بين براثن أسد.

تدفقت ضحكة كالعسل من حنجرة سيسيليا:

ـ إن لعدة نساء حاضرات هذه البراثن دون شك، خاصة في وجود زوجك الرائع.

قالت إليان بابتسامة شيطانية:

ـ أعتقد أن هذا نوع من الافتتان بسحره...

ضحكت سيسيليا دون أن يصيبها أي خجل:

ـ إنه وحش مثير وهو عند بعضهن جذّاب قاتل.

ابتسمت إليان، فأردفت سيسيليا:

ـ ما أروعك... أنت خجول!

أمسك أرماندو بيد إليان وسارع إلى القول:

ـ وهذا ما يسحرني.

حاولت سحب يدها من يده ولكنه شدّ عليها بتحذير صامت وتابع:

ـ ربما تراكما على العشاء قريباً؟ والآن اعذرانا، يجب علينا أن نتابع دورتنا على الضيوف، متعا نفسيكما...

وعندما ابتعدا حاول أن يقدم لها كأس شراب عن صينية

يحملها أحد السقاة ولكنها قالت:

ـ أفضل أن أتناول القهوة.

فضحك بصوت عميق جاف أرسل الرعدة في أوصالها.

ـ وهل أنت بحاجة لإبقاء ذهنك صاحياً؟

فردت عليه معترفة: «أجل».

ـ انتظري هنا حتى أحضر لك القهوة.

ـ لا.. أفضل الذهاب معك.

نظر إليها ملياً، ثم قال ساخراً:

ـ ما من أحد موجود هنا قد يجرؤ على مسّ شعرة من شعر رأسك الجميل.

ـ سامحني إن كنت لا أصدقك.

ودون أن يتفوه بكلمة أخرى، قادها نحو طاولة كانت أمامها ساقية تقدم الشاي والقهوة. لم تمضِ لحظات حتى وضع كوباً من القهوة بين أناملها المرتعشة، فراح يراقبها وهي تحتسي السائل اللذيذ الرائحة.

ـ بعد انتهائك من شرب القهوة نرقص.

ـ لقد نجحت بإعجاب في تمثيل دور الزوج الرائع طوال السهرة، ألا تظن أن في الرقص الحميم بعض المبالغة؟

ـ أوَ تتصورين أنني قد أبالغ في ضمك إليّ؟

ـ سأكون ملعونة لو قبلت معك هذا الاستعراض!

ـ وهل أنت واثقة أنه سيكون استعراضاً؟

هذه لعبة خطرة لم تكن واثقة أنها تود لعبها، ولكن ماذا

بوسعها أن تفعل في غرفة تكتظ بالناس.

ابتسمت له وهو يجذبها إلى ذراعيه، فقالت لتكسر الصمت الذي ساد بينهما:

ـ لديك عدد وافر من الأصدقاء.

ـ بل شركاء عمل، ومعارف أحافظ على إقامة علاقات اجتماعية معهم.

ـ إن قولك هذا مثير للسخرية!

ـ أتظنين ذلك؟

إنه يتسلّى بها... اللعنة عليه!

ـ أجل...

ـ احذري أيتها القطة الصغيرة. مخالبك ظاهرة.

ـ إذا كانت قد ظهرت، فلأنني أكره تصرفاتك!

ـ ألأنني أراقص زوجتي؟

ـ أوه أنت لا تطاق! ألا تفهم حقاً ما أقصده؟

ـ لقد نظّمت هذه الحفلة ليتعرف إليك بعض الناس. أما سبب زواجنا فليس شأناً من شؤونهم.

ـ ثمة نساء عدة يرين أن معرفة سبب زواجنا شأناً من شؤونهن.

ـ هذه مشكلتهنّ لا مشكلتي.

ـ دعني أذهب... أريد تفقد جوزف.

ـ سيريان معه. بعد لحظات سنعود للطواف حول ضيوفنا.

ـ أكرهك!

ـ قولك هذا ظاهرة صحية.

فيما بعد، ظلت إليان تقوم بلعب دور المضيفة بسحر وجلال وكانت الخاتمة أن وقفت إلى جانب زوجها تودع آخر المدعوين. وما أن أقفل أرماندو الباب، حتى تركت القناع يسقط عن وجهها. قال أرماندو:

ـ سأعطي المربية أجرها ثم أشغل جهاز الاستماع الإليكتروني، فلا حاجة إلى نقله إلى غرفته الآن وهو نائم.

كان على حق ولكن ذلك لم يحلّ بينها وبين الرغبة في مواجهته، ففتحت فمها ولكن لم تلبث أن عادت تطبقه.

ـ لا تجادليني.

ارتدّ رأسها إلى الوراء وكأن لهباً من النار مسّها.

ـ سأفعل ما يحلو لي!

ـ اذهبي إلى الفراش.

ـ وأنتظرك حتى تأتي إليّ؟

ودون أن يرد ارتدّ على عقبيه لاعناً، شاتماً.

ستكون ملعونة لو أطاعته!

واتجهت إلى غرفة الاحتفال مع أن الوقت قد تجاوز الثانية صباحاً، فوجدت أن السقاة الذين قاموا بالضيافة كانوا كفوءين، فلم يكن في الغرفة من أثر الاحتفال إلا بضعة أكواب متفرقة. ولكنها وجدت أن تنظيفاً سريعاً للسجاد بالمكنسة الكهربائية سيعيد الغرفة إلى وضعها السابق.

وكانت على وشك الانتهاء عندما توقفت المكنسة فجأة،

فالتفتت فإذا بأرماندو واقف وبيده الشريط المنزوع من المقبس.

ـ ألا يمكن لهذا الانتظار؟

ـ لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة.

ـ في الصباح يا إليان.

ـ أفضل أن أقوم به الآن.

ـ العناد للعناد غباء مطلق، ألا تظنين هذا؟

ـ ألا ترى أنك تبدي عناداً مماثلاً أنت أيضاً؟

ونظر إلى الساعة الذهبية في معصمه وقال:

ـ إنها الثانية والنصف صباحاً وهذا يعني أن الوقت غير مناسب لنقاش لا طائل منه.

ـ إذاً، عليّ أن ألعب ثانية دور الزوجة المذعنة!

ضاقت عيناه وظهرت عليهما القساوة:

ـ ربما بإمكانك تفسير هذه الملاحظة؟

ـ لا أحب أن يملي عليّ أي كان ما يجب أن أفعله، ولا أحب بشكل خاص أن يؤخذ قبولي على أنه مسلم به. أحس أنني طفلة، أُجبر على الطاعة. ولكنني لست طفلة.

ـ ألست طفلة؟ إن معظم النساء يجدن البهجة في ثرائي وهن يخططن للحصول على ما يسمى «الترف»!

ـ وهل تدينني كطفلة لأنني لا أرغب في الفراش؟

ـ يا لهذه الجملة المثيرة للعواطف!

ـ أكرهك! أتفهم...؟ أكرهك!

ثم راحت تصرخ ولكنه أمسك ذراعيها بهدوء ثم رفعها عن الأرض فوق كتفه:

- ماذا تفعل؟

توجّه إلى الدرج قائلاً:

- إن ما أفعله واضح.

- انزلني، اللعنة عليك!... نذل!... بربري!

وعندما دخل بها إلى غرفة النوم أنزلها فوقفت في مواجهته تنظر إليه بعينين غاضبتين مبللتين، فقال لها:

- يبدو أن هذا هو المستوى الوحيد الذي نقدر أن نتخاطب فيه.

- تكلم عن نفسك!

- نفسي تغريني بجعلك تتوسلين حبي.

- وماذا يمنعك؟

- أيتها الحمقاء الصغيرة، ألا تخشين غضبي؟

- وماذا ستفعل..؟ أتضربني؟

- ربما عليّ أن أضربك فعلاً لألقنك درساً تستحقينه.

- وماذا عن الدرس الذي تستحقه أنت؟ لأنك أجبرتني على الزواج بك وعلى مشاركتك ما أرفضه...

توقفت مرتجفة غضباً. فقال لها:

- حبك لأنيتا وجوزف يفوق أي اعتبار ثانوي.

- ثانوي!

- أنت لا تكرهينني كما تدّعين.

فصاحت به:

- ليس هناك من ادّعاء أبداً فيما أشعر به نحوك!

وضع إصبعيه تحت ذقنها ورفع رأسها نحوه:

- ربما عليك البحث فيما إذا كان الغضب لا يولد في نفسك حب التمتع بما تصرين على تسميته رغبة ليس إلا.

هل يعرف أنه يستحيل عليها الاتفاق مع رغبات جسدها الخائنة؟ وأن جزءاً منها حتى الآن، يرغب في الذوبان بين ذراعيه، بينما الجزء الآخر يتوق للفرار من جنون هذا الشعور.

فقالت كاذبة:

- أنا لا أتمتع بالأمر!

الاعتراف حتى لنفسها بأنها تفعل كان شيئاً ترفض أن تفكر فيه. فقال لها ساخراً:

- لا؟

ورفع إصبعيه عن ذقنها وأخذ يمررهما فوق وجهها وعنقها.

- ما أجملك!

بدا أن أنفاسها انحبست في حنجرتها فقالت وعيناها متعلقتان بعينيه:

- توقف عن هذا... أرجوك!

- ولماذا أتوقف؟

- أرماندو...

همس اسمه خرج من شفتيها كاليأس:

ـ لا تفعل!

ودمّ يده في شعرها، ثم أمسك بعنقها فيما انسلت الأخرى نحو ظهرها، وجذبها إليه... فتنهدت واشتعلت شعلة عميقة تحت سيطرته الكاملة عليها، بعدما انبعثت الحياة إلى كل مسام في جسمها...

حينما عادت بعد فترة طويلة إلى عالم الواقع، بدت وكأنها سجينة توهج ضبابي وردي، تشعر بلمساته الخفيفة كالريش، فعجزت عن الحراك، ثم ماتت ضحكة صغيرة في حنجرتها قبل أن تبدأ.

ـ ما الذي يضحكك؟

أدارت رأسها ببطء فالتقت بالرغبة العميقة التي ما زالت ظاهرة في عينيه.

ـ أظن أنه علينا التوقف... ففي الأعلى طفل صغير سيستيقظ عما قريب مطالباً بوجبته الصباحية المبكرة.

ـ سأطعمه بنفسي ثم أعود إليك.

ـ أنت مجنون!

ـ وأنت يا حلوتي.. كذلك.

تذكرت كيف استجابت بين ذراعيه، فاحمرّ وجهها وأدغشت عينيها سحابة خجل. فقال لها متوسلاً:

ـ لا تشعري بالحرج أبداً لأنك أحسستِ بالضياع كما أحسستُ به أنا.

ـ ربما كنت أتظاهر زيفاً.

ـ كاذبة، فسعادتك كانت بادية للعيان.

ـ وأنت الخبير.

لم تقصد أن يكون في كلماتها مرارة ولكنها مع ذلك برزت في صوتها. فانخفض جفناها ليكوّنا ستاراً حامياً ضد سخريته.

ـ خير بما فيه الكفاية لأمنحك السعادة والرضى.

ـ وهل يجب أن أكون ممتنة لهذا؟

ـ أنصحك ألا تستفزيني حتى أظهر لك الفرق.

تسللت رعدة باردة إلى سطح بشرتها:

ـ سأذهب لأستحم.

وعندما عادت إلى غرفة النوم، اندسّت بحذر في الفراش، الذي اكتشفت أن أرماندو فيه يغط في النوم.

ظلّت عدة دقائق تدرس تقاسيم وجهه المسترخي فقاومت رغبة جامحة إلى ضمّه ومعانقته، ثم صاح بها صوت صغير داخلي: هل أنت مجنونة؟

مدّت يدها المرتعشة فأطفأت المصباح الجانبي، ثم ألقت رأسها على الوسادة، وتركت للتعب الداخلي نقلها إلى نوم عميق خالٍ من الأحلام.

• • •

٩ ـ انقلب السحر على الساحر

بدا يوم الأحد واعداً بيوم مشمس فيه البحر أملس حتى يكاد لا تُرى فيه موجة، وفيه النسيم خفيفاً حتى يكاد لا يحرك شيئاً في الطبيعة.

قال أرماندو عندما دخلت إليان إلى المطبخ:

ـ الطقس جميل. لذا من المؤسف ألا تنطلق بالمركب إلى المياه الهادئة.

دنت من البراد فأخرجت منه الحليب والكورن فلكس ثم صبّت قدراً كبيراً منهما في وعاء وعادت إلى الطاولة وهي تقول:

ـ إن رافاييل وروندا سيتمتعان دون شك بقضاء يوم كهذا في الخليج.

ـ ولا ريب أنك قادمة معنا.

كان قد أنهى فطوره وجلس قبالتها يرتشف قهوته فقالت له:

ـ ليس من الإنصاف مجيء ميريان دون سابق إنذار، خاصة يوم الأحد، وما يزيد الأمر صعوبة أنها كانت معه ليلة أمس.

أضف إلى ذلك أنني لا أحبذ كثيراً أن يُترك جوزف في رعاية مربية، فالأطفال بحاجة إلى اهتمام ذويهم ليطمئنوا إلى حياتهم الاجتماعية.

ارتفع حاجبه بسخرية:

ـ أوافقك الرأي يا عزيزتي إليان، ولكن جوزف ما زال صغيراً جداً وهو لا يحتاج إلا إلى النظافة والطعام، لذا لا أرى أن رعاية المربية قد تضر بنفسيته، إضافة إلى أننا سنعود عند الخامسة.

ـ لماذا لا تسمع إلا نفسك؟

ـ يحبك والداي كثيراً لذا أنا مستعد للقيام بما في مقدوري لإسعادهما ما داما في هذه الجزيرة.

ـ ولكنني أظن أنهما يرغبان في قضاء أكبر وقت ممكن مع حفيدهما، لا في الإبحار والحياة الاجتماعية.

صمت دقائق، ثم قال بنعومة:

ـ شاهدا في السنة الماضية ولدهما مصاباً إصابة رهيبة، فعانيا من اليأس لأنهما كانا عاجزين عن فعل شيء له مع أنهما حوّلا المنزل إلى عيادة، واستأجرا فريقاً من الموظفين ليبقى أحدهما إلى جانبه دائماً.

توقف قليلاً ثم أردف بنبرة مختلفة:

ـ أما الآن فهما بحاجة للراحة، والبدء بالاستمتاع بحياتهما ثانية، وإذا كان هذا يتضمن الإبحار والخوض في الحياة الاجتماعية فليكن. هل أوضحت ما أعني؟

فدفعت إليان صحنها بعيداً، وقد فقدت شهيتها:

ـ بشكل مؤلم.

ـ أكملي طعامك.

ـ ما عدت جائعة.

ـ ربما غيابي سيساعدك على استعادة شهيتك، سأذهب إلى المكتبة لأجري بعض المخابرات.

كان الجميع بعد ساعتين على متن مركب كبير فخم، يرسو على طرف القناة في نهاية حديقتهما. تنهدت روندا وهي تلتفت إلى ابن زوجها.

ـ هذه هي الجنة!

كادت إليان تشهق لحرارة ابتسامته وهو ينظر إلى روندا.

ـ سنرسو أمام سانت جون لتناول الغداء، وبعد ذلك يمكنك وإليان التجول في المحلات فيما أجلس ورافاييل تحت أشعة الشمس.

صاح رافاييل بابنه:

ـ أنت تدللها كثيراً.

ضحكت روندا قائلة:

ـ إن النساء جميعهن يحببن أن يدللهن الرجال، أليس كذلك يا إليان؟

فابتسمت إليان وهي تقول:

ـ قطعاً.

فنظر أرماندو إلى والده وقال ساخراً:

ـ لدي حدس ينبئني بأن هذه الرحلة ستكلفنا كثيراً.

بعد غداء خفيف من الأطعمة البحرية، خرجت إليان وروندا تتجولان في الأسواق. وما إن عادتا حتى قال أرماندو بسرور:

ـ ألم أقل لك؟

فقالت روندا وهي تمسك بيد زوجها:

ـ لقد اشترت إليان ثوباً رائعاً.

رقّت ابتسامتها عندما رفع رافاييل يدها إلى شفتيه بحركة جعلت قلب إليان يخفق على غير عادة اعترافاً بجمال هذا الحب الذي يتبادله هذان الشخصان. أضافت روندا:

ـ لقد أقنعتها أن ترتديه في عرض الأزياء الذي دعتنا إليه سيرينا هايز هنا يوم الثلاثاء.

دار المركب حول الخليج ليقلّهم إلى الخليج الذي تقبع قربه الڤيلا.

قبل الخامسة، بعد انصراف ميريان، تفقدت إليان جوزف فوجدته يحدق إليها استعداداً لتناول وجبته.

قالت روندا بعد الصرخة الأولى:

ـ اسمحي لي، أنا واثقة أنك ترغبين في الاستحمام وفي تغيير ملابسك.

ـ شكراً لك... لن أتأخر.

عندما عادت، كان أرماندو ورافاييل في المطبخ، أما جوزف فكان في حضن روندا، تتنقل عيناه من واحد إلى آخر

فيما فيضتاه الصغيرتان تضربان بسرور ظاهر. قال رفاييل بكبرياء:

ـ أترين.. إن هذا الصغير قوي. انظري إلى هاتين الساقين، وإلى تلك اليدين! سيصبح طويل القامة وسيكون حامياً لشقيقاته، ومثالاً لأشقائه، أليس كذلك؟

كان العشاء وجبة من «السنيك» المشوي وسلطة مشكلة، مع فاكهة طازجة، أعقبه تناول القهوة بكسل في غرفة الجلوس.

غادرت روندا ورافاييل في تمام التاسعة معلنين حاجتهما إلى النوم المبكر، وكانت إليان تشعر أيضاً بالتعب من جرّاء هواء البحر، وأشعة الشمس الدافئة الشتوية. قالت فيما كان أرماندو يقفل الباب ويدير جهاز الأمان:

ـ سأنظف المطبخ.

ـ سنتظفه معاً.

كانت تسير أمامه، فشعرت لسبب ما بأن وجوده يثيرها، لذا أرادت البقاء على انفراد.

ـ سأتدبر أمري بنفسي.

لم يكن هناك سوى بعض الأكواب والصحون، فغسلتها بسرعة ثم وضعتها في غسالة الصحون قائلة:

ـ انتهى كل شيء.

فقال لها فجأة:

ـ لقد فتحت لك حساباً منفصلاً في المصرف والمبلغ

المودع فيه باسمك يغطي أي مبلغ قد تحتاجين إليه... التفاصيل على مكتبك في غرفة جلوسك.

أحست بالامتعاض، فأجبرت نفسها على سحب أنفاس عميقة لتستعيد هدوءها.

ـ أفضل استخدام مالي الخاص، فلديّ حساب جارٍ.

تركزت نظراته على قسماتها، فلاحظ القلق على حنايا ثغرها، والكبرياء في ارتفاع رأسها، والتصميم في هاتين العينين الزرقاوين الجميلتين.

ـ لماذا ترغبين في الاستقلالية؟ أليس من حق الزوج دعم موارد زوجته؟

ـ نعم فيما يتعلق بمصاريف المنزل واحتياجات جوزف أما فيما يتعلق بثيابي فلا.

ـ وإذا أصررت؟

ـ أصرّ ما شاء لك ذلك، ولكنك لن تخيفني حتى الإذعان بوثيقة زواج.

فابتسم ساخراً:

ـ وهل هذه دعوة للمساواة بين الرجل والمرأة؟

أصبحت الآن حقاً خاضعة!

ـ إذا كنت ترغب في دمية همها الوحيد الظهور بالجواهر وبآخر صيحات الموضة، فقد ارتكبت غلطة عندما أخذتني!

ـ لا أراني أخطأت.

ـ وهل تتمتع بزواجنا الهزلي؟

ساحل صقلية. إنه مكان خيالي، ليس فيه سيارات بل هدوء وعزلة حتى يكاد لا يصل إليه المرء إلا بالهليوكبتر. كنا نمكث كثيراً في ذاك المنزل مع جوزيبو وأرماندو.

إحست إليان بأحزان المرأة العجوز، فلمست يدها في إشارة صامتة للتعاطف.

ـ لا بأس يا عزيزتي، عندما يكبر الإنسان، يدرك أن لا وجود إلا للحاضر، فالذكريات لا تتغير. أتعلمين أنني أعتبر نفسي محظوظة لأن معظم ذكرياتي سعيدة. ولداي مدعاة فرح لنا، مع أن جوزيبو كان طائشاً، يتمسك بالإثارة خلف مقود مركب سريع أو سيارة سباق. لقد عشت في رعب متواصل بانتظار ذلك اليوم الذي سيصيبه فيه مكروه.

ـ وماذا عن أرماندو؟

ـ كان جاداً رصيناً، وكان رغم فرق العمر الذي بينه وبين أخيه على علاقة حميمة مع جوزيبو، وقد حدث خلال تلك الأشهر القظيعة أن أمضى وقته بين هذه الجزيرة وبين روما ولمّا كان لا يستطيع المجيء لسبب من الأسباب، كان يتصل في اليوم مرتين هاتفياً.

ـ إليان.. لقد أحسست صنعاً باصطحاب روندا معك.

خاطبهما صوت أنثوي أجش، فالتفتت إليان فإذا سيرينا هايز في ثوب حريري أبيض. وردّت عليها بأدب:

ـ سيرينا... أهلاً.

ـ لقد رتبت أمر جلوسنا معاً وقت الغداء. وإذا انفصلنا

أثناء عرض الأزياء فلاقيني في الحفلة فيما بعد. يجب أن أسرع هناك بعض بطاقات يُفترض أن يسلمني إياها أحد أعضاء الجمعية.

كان العرض رائعاً بل هو أفضل عرض حضرته إليان في حياتها، فالعارضات كنّ من أرقى العارضات، والملابس لم تكن عظيمة فحسب بل فاتنة.

سألتها روندا:

ـ هل شاهدت ما أعجبك؟

ضحكت عندما شاهدت الوميض المعجب في عيني كنتها، فقالت إليان:

ـ سأعود للنظر إلى الموديلات في «الكاتالوج» بعد الغداء، ما رأيك؟

ـ عظيم... بمناسبة الحديث عن الغداء، علينا التوجه الآن إلى خيمة المدخل.

كان المطعم الذي اختير للمناسبة فوق الماء، يطلّ على منظر المرفأ الرائع وعلى القيلات والمراكب الفخمة الراسية أمام رصيف قريب.

جلست صوفي في المقابل، قرب سيرينا وميلاني وكايسي وبات وإيزابيل، فأحست إليان وكأنها في مواجهة لجنة تحقيق. تقدم منهن عدد من الشبان ليقدموا لهن طلباتهن، وما بعث السرور إلى نفسها اهتمام أحد الشبان بها. فقالت لها صوفي دون لباقة:

ـ حبيبتي، وكأنك اصطدت أحدهم. هل ستدسين له رقم هاتفك؟

أجابت إليان برزانة لا تخلو من الخشونة:

ـ لا أظن أنني أجد بوجود طفل صغير الوقت الكافي للفت انتباه فتى لعوب، هذا عدا ذكر انزعاج أرماندو من أمر كهذا.

فضاقت عينا صوفي:

ـ بعض الغيرة تضفي على الزواج إثارة مميزة.

يا الله إنها تشعر وكأنها فراشة مثبتة على لوحة فوق الجدار تنتظر العيون النهمة أن تقدم على أول حركة. قالت متسائلة:

ـ وهل تظنين هذا؟ ربما يضربني أرماندو.

ابتسمت سيرينا، فيما حدقت صوفي إلى إليان دون أن يرف لها جفن:

ـ شقيقي دميان يصرّ على أن نقيم حفلة عشاء السبت القادم. سأتصل بأرماندو لأبلغه.

والتفتت إلى روندا.

ـ يجب أن تأتي أيضاً.

ـ سنسافر إلى لوس أنجلوس غداً لقضاء بعض الوقت مع شقيقتي.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم عندما استطاعت إليان وروندا الانسحاب. بعد ساعة ونصف من اختيار الأثواب التي أرادتاها عادتا إلى الجزيرة الصغيرة

التي تضم الڤيلا.

لقد خططت إليان لإقامة عشاء غير رسمي في المنزل احتفالاً بالأمسية الأخيرة التي سيقضيها رافاييل وروندا في نيوفاوندلاند.

عندما حان وقت سفرهما في اليوم التالي، شعرت إليان بالحزن لأنها ستفتقد روندا. ولكن المرأة العجوز قالت لها قبل أن تغادر:

ـ ليس الأسبوع بوقت طويل. سأتصل بك دائماً لتفقد أحوال حفيدي.

قال رافاييل وهو يصعد إلى السيارة:

ـ سأبذل جهداً كبيراً لمنعها من إجراء ثلاث مخابرات يومياً على الأقل.

حالما انطلقت المرسيدس مبتعدة عن الأنظار دخلت إليان إلى المنزل الذي بدا لها كبيراً خاوياً بشكل غريب. كان جوزف نائماً، فاستحمّت ثم اندست في الفراش وعشرات الأفكار تضجّ في رأسها.

عندما سمعت أرماندو يعود أغمضت عينيها تتظاهر بالنوم وتحس بألم حاد قرب قلبها. ما أروع أن تسعى إلى الراحة بين ذراعيه، وما أعذب أن تتركهما تحيطانها. إلا أن مثل هذه الصورة لا تنتمي إلا إلى عالم الخيال... توقفت عن انتظاره بعد دقائق عديدة، فعللت تأخره ذاك إلى انشغاله ببعض الأعمال المكتبية. وعندما استيقظت في اليوم التالي، اكتشفت

أنه قد استيقظ قبلها.

أمضت الأيام التالية وحدها في المنزل فشعرت ببعض الراحة وقد استغلت هذا الوقت فكتبت رسائل لأصحابها ثم اتصلت هاتفياً بميراي ستانلي التي تحلّ محلها في مكتب الديكور فاطّلعت على الأوضاع هناك.

كانت بعد ظهر كل يوم تحضر وجبة المساء مختارة أفضل الأصناف ثم تنتظر أرماندو الذي كان يصل قبل الخامسة.

وقد اعتاد بعد حمام سريع أن يصر على الاهتمام بجوزف وإطعامه قائلاً:

ـ إنه بحاجة إلى رجل في طفولته. وليس لدي من وقت إلا في مثل هذه الساعة.

كان اعتناؤه بالصغير يترك لإليان الحرية لتضع اللمسات الأخيرة على العشاء، وكثيراً ما كانت تفكر في أن وجود الصغير بين يدي أرماندو يثير عاطفتها ويجعلها تشعر بأن أرماندو سيصبح جزءاً لا يتجزأ من جوزف، ولكن هذا الشعور كان يجعل قلبها يتقطر ألماً لأن نقل جوزف إلى بلادها قد يكون خيراً لها إنما ليس بالضرورة خير للصغير.

كان الحوار عشاء كل ليلة يخصص لنشاطاتهما اليومية. ولكن أرماندو كان يتوجّه إلى مكتبه حالما يكمل وجبته، وقد اعتاد ألا يخرج إلا بعد أن تنام إليان.

عندما حلّت ليلة السبت أي موعد الحفلة التي ستقيمها صوفي ودميان شعرت إليان بأنها لم تعد قادرة على تجاهل

أرماندو لها. فجلست أمام المرآة تضع اللمسات الأخيرة على ماكياجها.

تمتمت بصوت منخفض وهي تتزين: أجل؟.. لا؟ اللعنة! راحت تتصور الأمسية التي تنتظرها ببعض التخوف ولكنها فكرت في أن على زوجها الديناميكي أن يجيب عن أسئلة عديدة.

أمسكت الثوب الجديد الذي أخرجته بوجل. بالأمس عندما وقع نظرها عليه اختارته لا لشيء إلا للانتقام من أرماندو، فهو ثوب بعيد عن الاحتشام يظهر مفاتن جسمها بوضوح. في هذه اللحظة شعرت بأن ارتداءه فكرة غبية خاصة وقد خبت قليلاً في نفسها جذوة الانتقام. كانت على وشك إعادة الثوب إلى مكانه عندما دخل عليها أرماندو.

ـ متى طلبتِ من ميريان الحضور؟

ـ في السابعة.

مدّ يده ليتناول قميصاً أبيض يليق بالبزة السوداء. كان رائعاً بهذه الحلة التي أظهرت سلطته وقوته فشعرت بشوق إلى معانقته.

ولكنها كرهت نفسها بسبب شوقها هذا فأسرعت تفتح سحاب الثوب الذي انسدل بحرية على جسمها، ثم أعادت أناملها بطريقة آلية السحاب إلى مكانه.

ـ هل أخذت هذا الثوب بغية رفع ضغط الرجال في الحفلة الليلة أم رفع ضغطي أنا؟

- ولماذا أتعمد رفع ضغطك؟

- النتيجة مذهلة، ولكنني لن أستطيع الوقوف حارساً لك طوال السهرة لأدفع عنك الاهتمام الذي ستتلقينه دون شك.

- حقاً؟ وهل تقترح أن أغير الثوب؟

وامتلكتها رغبة جامحة في مواجهته، وأجابها بعبوس:

- أجل..

- وإذا اخترت العكس؟

- ليس أمامك إلا أن تخلعيه بنفسك أو أنوب عنك بنفسي.

كان صوته قاسياً غير مرن، فارتفع رأسها غضباً وعصفت عيناها كبحيرة متأججة.

- أيها الأناني المتعصب، لن تجرؤ على نزعه.

- أوه.. بل أجرؤ.

سرت رعدة باردة في أوصالها ومع ذلك قالت غاضبة:

- إنه آخر صيحة في عالم الموضة وقد كلفني ثروة. زد على هذا أنني لن أسمح لك بأن تملي عليّ إرادتك فيما يخص ملبسي.

فأمسك ذقنها وراح يشدّ عليه قبضته:

- توقفي عن المجادلة للمجادلة.

- أنا لا أجادل!

- بتّ تعرفينني جيداً ومن المؤكد أنك فهمت أنك لن تكسبي شيئاً بعنادك.

- أتعني أنك لن تسمح لي!

صمت للحظات ثم قال بغضب:

- المرأة المحترمة لا تتعمد إبراز مفاتنها بطريقة واعدة. ارتدي هذا الثوب عندما نكون وحدنا وعندها سأكون شاكراً لك.

- أوه.. بالله عليك! أنا لا أصدق ما أسمع.

- صدّقي إذن... والآن غيري الثوب.

- لا.

- التحدي للتحدي يا إليان، ألا تتصرفين بغباء؟

- إذا كان يلذّ لك أن تنزع الثياب عن المرأة، فهيّا افعل.

حملت عيناه غموضاً لم تفهمه، فارتجف فمها.

قال بصوت ثابت:

- غيري الثوب يا إليان أو افعل هذا بنفسي.

- وإن رفضت، أتفرض عليّ عقاباً من نوع معين.

- احذري.. أعصابي متوترة سلفاً.

- ولذا عليّ أن أذعن مهما كان الثمن؟ هذا الأمر يرتقي إلى عصور البرابرة!

فارتفع حاجبه بسخرية:

- حتى الآن عاملتك بقفازات طفل.

- أنت تمزح!

- الأبله هو الذي يعضّ اليد التي تعطيه الحب الذي يريده. أكملي على هذا الدرب في إغضابي ترَي الفرق.

من الجنون السير في معركة كهذه ولكن رغم ذلك ظلّ

بعض العناد الجلف يرفض السماح لها بالاستسلام.

ـ لا تهددني!

ـ أهذا ما تريده؟

ـ وما هي الكلمات الأخرى التي تختارها لوصف ما تفعل؟

ـ اخلعي الثوب يا إليان، وإلا فتحملي العواقب.

وقفت دون حراك وكأنما تجمدت أطرافها، وانفصلت عن سيطرة عقلها. أما هو فصرّ على أسنانه ثم دنا منها تمتد يده إلى السحاب فصرخت، ولكنها لم تستطع أن تحول دون سقوط الثوب على الأرض عند قدميها.

ارتفعت ذراعاها تلقائياً لتستر نفسها، ولكن يديه أمسكتا كتفيها بتملك فيما انحنى رأسه إليها.

كان عناقه متملكاً، عنيفاً فحاولت مقاومته دون طائل ولكن هذا العناق الذي بدأ عنيفاً لم يلبث أن رقّ ورقّ حتى ذابت بين ذراعيه وقد غابت الدنيا عنهما في دوامة لا نهاية لها.

أرادت أن تتهمه بالوحشية، ولكن كان في داخلها سعادة بدائية، جعلتها لا تقوى على الاحتجاج.

بعد ذلك عادت وارتدت ثوباً زاهياً من الساتان الزمردي الأخضر ووضعت قلادة من الزمرد، ثم راحت ترسم شفتيها بأحمر شفاه وردي وتزين عينيها بلمسة خفيفة، عندما جهزت تماماً أمسك أرماندو يدها بخفة ورافقها إلى الكاراج حيث

سيارة المرسيدس.

ـ لقد اتصلت بصوفي وطلبت منها ألا تؤخر العشاء بيننا لأننا سنتأخر غصباً عنا. لقد حجزت طاولة في أحد المطاعم وسنتعشى فيه وحدنا.

فأخذت نفساً عميقاً ثم قالت:

ـ لست جائعة!

ـ عليك أن تأكلي شيئاً ولو كان حساء.

كانت الساعة قد قاربت العاشرة عندما تجاوزت المرسيدس الحراس وانسلت إلى موقف خاص بالأبنية السكنية التي تقع فيها شقة صوفي. وقفت إليان بصمت وهما يستقلان المصعد إلى الطابق العلوي من البناء.

• • •

١٠ ـ وأبحر القدر...

ـ أرماندو!

فوجئت إليان بصوفي تعانق بحرارة أرماندو الذي شعر بالإحراج ثم لم تلبث المرأة أن ارتدت إلى الوراء قليلاً لتحوّل بصرها إلى المرأة الواقفة قربه: «إليان» ثم وضعت ذراعها تحت كوعه وقادته إلى الأمام، فتمتمت إليان بأدب «صوفي... ما أجمل رؤيتك!»

"كاذبة" صاح بها صوت صامت ولكنها تفادت بقولها ذاك طعنات هذه الفاتنة السابحة فوق القمر التي اسمها صوفي روستيل.

قالت صوفي بصوت أجش:

ـ لقد خيبت ظني بعدم حضورك وقت العشاء.

فأجابها أرماندو:

ـ لقد طرأ ما أخرنا.

وعندما نظرت صوفي إلى إليان نظرة استفهامية سريعة اختارت ابتسامة حلوة وسارعت تقول بأسف:

ـ لسوء حظنا.

وماتت الكلمات على شفتيها حينما أمسك أرماندو بيدها التي رفعها إلى شفتيه ليقبل كل إصبع على حدة.

أحست بنار سائلة تجتاح عروقها، لتشعل نهاية كل عصب على انفراد بعدما تركزت النار في لبّ أحاسيسها.

وكأنما فهم أفكارها إذ راح يمرر إبهامه فوق شرايين معصمها، فأخذت نبضاتها تتسارع، ولولا تذكرها جامّ غضبه الذي انصبّ حينما أجبرها على خلع الفستان لتصورت أنه يقصد من هذه الحركة أن يقول بصمت... ماذا؟ انه يعتذر؟ إنه نادم؟

قالت صوفي وهي تقودهما إلى غرفة الجلوس:

ـ أنا واثقة أنه كان لديكما سبب وجيه يا حبيبتي. سأحضر لكما شراباً، ثم هناك ما أبحث معك يا أرماندو.

والتفتت إلى إليان مبتسمة:

ـ يتعلق بالعمل.

ثم استدارت، مستبعدة إليان تماماً:

ـ إنه بشأن سكن آل هولدن، يجب عليك أن تثني بوسي عن اللون الوردي الذي تصر عليه.. إنه حقاً غير ناجح.

تحركت إليان قليلاً وهي تراقب البسمة المنحنية على زوايا فم أرماندو الذي قال:

ـ إذا كنت أنت يا صوفي لم تستطيعي أن تؤثري فيها بنفوذك، فعليك إذاً أن تتقبلي الواقع لأن المنزل منزل لوسي، وهي من تقوم بتسديد الفواتير.

- ولكن هذا يمس سمعتي.

- تخلي إذاً عن المهمة.

لمعت عينا المرأة وهي تتنهد تعبيراً عن عدم الرضى وقالت:

- المشكلة إن لحديثي العهد بالثراء ذوقاً سقيماً.

تدخلت إليان قائلة لإجبار صوفي على الالتفات إليها:

- لماذا لا تعرضي عليها نموذج أحد أعمالك السابقة، فالتصاميم في المجلات وعينات الأقمشة التي لا عدد لها قد تكون محيّرة.

بدا على صوفي وكأنها واجهت مقاطعاً متطفلاً، فقالت تصرف الفكرة بكبرياء:

- هذا شيء مستحيل وهو يعتبر تطفلاً على خصوصية زبون سابق.

فردت عليها إليان بهدوء:

- لو كنت مسرورة حقاً «بديكور» منزلي لوددت أن يشاركني آخرون بالديكور ذاته.

تقدم في هذه اللحظة شقيق صوفي، دميان، فألقى عليهما بابتسامة ساخرة لا لبس فيها:

- آه.. ها أنتم.

ونظر إلى شقيقته نظرة متسائلة سريعة ومنها إلى أرماندو قبل أن تحط نظرته أخيراً على إليان:

- تبدين فاتنة كالعادة. ماذا أحضر لكما من شراب؟

فقالت إليان دون تردد:

- مياه معدنية ستكون رائعة.

أما أرماندو فاختار شراباً خاصاً مع صودا.

- أرماندو.

قاطعهما صوت ناعم دافي فالتفتت إليان قليلاً فإذا بها لا تعرف صاحبة هذا الصوت النسائي الأجش. كان توقف الصوت عن الكلام متعمداً، كلهجته المثيرة:

- ألم تصل المربية في الوقت المحدد؟

ابتسمت إليان ابتسامة مشرقة، وقالت:

- أرماندو هو الملوم لأنه لم يوافق على ما أخذت من ثياب... و...

وتوقفت عن الكلام...، ثم هزت كتفيها، ونظرت إلى أرماندو نظرة خبيثة، وتابعت:

- ثم قادنا الأمر إلى أشياء أخرى.

انفتح الثغر الجميل الملون بالأحمر القاني، ثم اشتدت شفتاه حتى أصبحتا خيطاً مستقيماً. فقال دميان وعيناه تبرقان بطريقة شيطانية:

- يا للصراحة يا حبيبتي... أعتقد أن الأمر كان يستحق تفويت العشاء؟

قالت صوفي بصوت ملؤه الانتقاد اللاذع:

- يا دميان.. هل يجب أن تكون على هذه الدرجة من الفظاظة؟

- زوجي في بعض الأحيان....

ثم توقفت عن عمد لتطلق ابتسامة غامضة قبل أن تقول:

- لحوح جداً...

هكذا... وليفسروها كما يشاؤون، اللعنة عليهم! لقد أسقمتها تعليقاتهم التي كانوا يقصدون بها صدمها أو على الأقل إزعاجها.

قالت بنعومة لأرماندو:

- لا أعتقد أن دميان يحتج لو طلبت منه أن يسليني فترة ريثما تنهي وصوفي ما تريد أن تتباحثه معك.

فقال أرماندو بعزم:

- سأتحدث إليها فيما بعد. هل لنا أن نختلط بالآخرين؟ فلا يعقل لنا أن نحتكر اهتمام مضيفينا.

كشفت تعبيرات صوفي أنه قادر على احتكار اهتمامها ساعة يشاء، ولم يبقَ أمام إليان خيار إلا أن تسير إلى جانب أرماندو وهو يقودها بين الضيوف. سألها أرماندو:

- ألم تكوني وقحة قليلاً في كلامك؟

- وهل هذه لغة أخرى يا أرماندو؟

- أجد من غير المسلي أن تقوم زوجتي بتعليقات مثيرة أمام فتى مجتمع لعوب.

- دميان؟ حقاً؟ وماذا عن النساء اللاتي يحمن حولك كما تحوم الفراشة حول النار؟

- ألا تبالغين بمأساوية؟

- لا...

قالتها ببساطة، فكان عليه إجبار نفسه على الوقوف جامداً ليرفع يدها ويمرر شفتيه عليها، ثم يمرر أصابعه على وجنتيها:

- وهل يزعجك هذا؟

أرادت أن تصرخ به: أجل... إنه يزعجني ويؤلمني... ومع ذلك فهي تعرف كيف ستشعر إذا ما اعترفت بهذا.

- ولماذا أنزعج؟

لمع بريق ما في عينيه لم يلبث أن خمد. قال لها ببرود:

- نستطيع المغادرة متى شئت.

فقالت بدهشة:

- ولكننا وصلنا منذ قليل.

- وهل تريدين البقاء؟

إنه سؤال مشحون! ولكن ماذا تجيب عنه؟ نعم هي لا ترغب في البقاء ولكنها في الوقت ذاته غير مستعدة للعودة إلى المنزل.

- أرماندو! ما أسعدني بك!

جاءت هذه المقاطعة في وقتها تماماً. نظرت إليان إلى الشقراء الصغيرة الجسد باهتمام، فيما راح أرماندو يقدمهما.

- لوسي هولدن... هذه زوجتي إليان.

- يسرني لقاؤك... أكاد أفقد عقلي! المنزل رائع، ولكنني أتساءل متى أستطيع السكن فيه؟

- لقد ذكرت صوفي سوء تفاهم حصل بسبب مشروع

الألوان. فما هي المشكلة؟

ـ الطلاء الوردي، أنا عادة أختار ظلاً قرنفلياً ليتماشى مع اللون العاجي واللون المشمشي كأساس. ولكن صوفي مصرّة على اللون الوردي الفاتح تمزجه مع لون القطر والليلكي... فما رأيك يا إليان؟

يا إلهي! لماذا أقحمتني في هذا؟

ـ لن أتعدى برأيي رأي صوفي، فهي ستشعر بالإهانة إن علمت أنك استشرتِ إنسان آخر.

قالت لوسي:

ـ ولكن رأيك يهمني.

ـ رأي من يا حبيبتي؟

كادت إليان تشهق عالياً وقد أدهشها أن لوسي لم تهتم بإصغاء صوفي إلى حديثهما.

قالت لوسي:

ـ لقد دعوت إليان لرؤية المنزل.

بدا واضحاً أن القطة قد وضعت بين الحمام بعناية وقصد، لأن صوفي نظرت إليها بحدة:

ـ حسناً بالطبع إذا كنت تفتّرين رأي شخص من الخارج غير مؤهل أكثر من رأيي...

وسكتت متعمدة فأسرع أرماندو للقول بنعومة:

ـ إليان مصممة ديكور أيضاً، وهي أهل لهذه المهنة.

جالت نظراته الدكناء على قسمات صوفي وكأنه يحذرها

ثم انتقلت إلى لوسي:

ـ سأتصل بوكيل الطلاء غداً، ثم أبحث معك أمر لقائك به في المنزل.

وكان ارتياح لوسي ظاهراً فلمست ذراع إليان:

ـ شكراً لك... سأرسل دعوات لتدشين المنزل حالما أستقر فيه، وسوف تأتيان دون شك، أليس كذلك؟

قال أرماندو بحرارة:

ـ سنكون مسرورين.

قالت صوفي بخبث عندما ابتعدت لوسي:

ـ هل هذا غزو جديد يا حبيبي؟

فقال بيرود:

ـ لوسي امرأة رائعة، وزبونة ثمينة لدينا، ولكن هذا لا يعني أنها كذلك بالنسبة لك.

أحست صوفي بتكديره، فتغيرت تعبيرات وجهها. وسألته باستفزاز:

ـ وهل هذا انتقاد رمزي غير مباشر يا أرماندو؟ فليكن للعزيزة لوسي اللون القرنفلي الوردي والعاجي، إذا كان هذا ما تريده. وبما أن لها مثل هذه الأفكار المبتكرة، فلماذا استشارت مصممة ديكور. يجب ألا ننسى أن حديثي العهد بالثراء يعتبرون جمع الآراء شيء جيد، وإن كانوا لا يريدون الالتزام بها.

فقالت إليان:

عنه، فارتفع حاجبه متسائلاً.

أحست في لحظة مجنونة أن كل ما يحيط بها قد تلاشى، حتى لم يعد في الغرفة أحد سواهما. إن هذا جنون مطبق، ولكنها أرادت فعلاً أن تكون معه. ليس إلى جانبه فقط، بل بين ذراعيه، تمسك به عن قرب، وتغدق عليه الحب والحنان. ابتسمت ابتسامة مهتزة، ثم أعادت ناظريها إلى دميان الذي انخرطت معه في حديث لم يكن له أهمية محددة.

ولكن الحديث على ما يبدو كان شيقاً، لأن دميان استجاب له بتدفق كلمات كادت ألا تسمعها أو تفهمها، فهزت رأسها وكأنما تحاول أن تصفي ذهنها.

ماذا دهاها، بحق الله؟

ـ دميان... هل تعترض إن أنقذت زوجتي؟

سمعت إليان صوت أرماندو العميق قبل ثانية من إحساسها بذراعه تعانق قدّها. شعرت بقشعريرة تجتاح كيانها كله وكأنها اعتراف صامت بوجوده.

قال دميان:

ـ أؤكد لك أنها لا تتعرض لأي خطر.

ليس من دميان على أي حال، أما من أرماندو فالمسألة مختلفة. قال لها أرماندو وهو يحني رأسه إلى رأسها:

ـ هل نذهب؟

وهزت كتفيها:

ـ إذا كنت ترغب.

فاعترض دميان:

ـ لم يكد الليل ينتصف.

ـ لقد قلنا قبل أن نترك المنزل إننا لن نتأخر.

ـ اتصل بالمربية إذن.

ـ لا أظن.

في السيارة جلست إليان بصمت، شاكرة الموسيقى الناعمة المنبعثة من مكبرات الصوت، تاركة رأسها بكل بساطة مستلقياً على مساند مقعد المرسيدس المنطلقة في عتمة الشوارع.

عندما وصلا إلى المنزل، قالت ميريان إن جوزف لم يتحرك من مكانه ثم توجهت إلى الخارج فرافقها أرماندو حتى الباب، ثم عاد إلى المنزل.

خلعت إليان حذاءها، ودخلت الحمام حيث راحت تزيل الزينة والمساحيق عن وجهها. بدت قسمات وجهها شاحبة، وعيناها كبيرتان جداً.

ما كادت ترفع الفرشاة إلى شعرها حتى دخل أرماندو الحمام فارتعشت يدها قليلاً لأنه اقترب منها ليأخذ الفرشاة من أناملها.

علمت أن عليها الاحتجاج، ولكن الكلمات لم تخرج من شفتيها. وقفت جامدة تحت لمساته، وكأنها تحت تعويذة وهمية.

ثم أحست بإغراء لا يقاوم إلى إغماض عينيها، وعندما توقفت ضربات الفرشاة أعلى شعرها، رفعت أهدابها فالتقت

نظرته بنظرتها في المرآة.

لفّ ذراعيه حول خصرها. ثم راحت أنفاسه تبعثر الشعر على رقبتها، فتركت رأسها ينحني إلى الأمام بدعوة صامتة، وهي عاجزة عن كبح تأثرها.

وكأنما يريد أن يختبر مدى تأثيره فيها. فتراجعت لتلتصق به، فيما ارتفعت يداه إلى كتفيها تديرانها إليه، حتى باتت عاجزة كل العجز بين ذراعيه... اجتاحتها عاطفة قوية شعرت معها برغبة في البكاء... وعندما رفع ذراعه تحت ركبتها ورفعها بين ذراعيه لم تستطع إلا أن تدفن وجهها في عنقه...

منذ أسبوع مضى... حتى الأمس كانت متأكدة من رغبتها في الفرار منه إلى بلادها. أما الآن، ففكرة الهرب من أرماندو تبعث في نفسها الشكوك وعدم الاستقرار، بل اليأس.

إن بقيت... يجب أن يكون لبقائها أسباب وجيهة، محقة، ولكنها شعرت بالريبة فيما إذا كان للحب دور في تعلقها. ففي البدء كانت غايتها من البقاء جوزف، أما الآن فتشك في أنه السبب.

استلقت إليان، ما بدا لها ساعة من الوقت، مستيقظة تحدق إلى السقف، ومئات من المشاعر المتناقضة تخيّم على تفكيرها وتصيبه بالارتباك.

لم يبقَ شيء على ما هو عليه.. لا شيء أبداً... انسلت من الفراش بحذر، وبطء شديدين لئلا تزعج الرجل النائم بصمت قربها.

كيف يمكنها تركه؟

بل كيف يمكنها البقاء؟

اجتازت غرفة الجلوس حتى وقفت أمام مهد جوزف... إنه أعز إنسان على قلبها.. إنه كل شيء في حياتها... لم تستطع حبس الدموع في عينيها.

شعّ نور القمر متسللاً من الستائر القاتمة، مخلّفاً مساحة من الظلّ والنور الفضي، مغلفة أصابع الظل كل شيء آخر.

كان الدرابزين المحيط بالمهد يشبه رسماً ملائكياً لا يتصل أبداً بشكلها الأصلي، والمهد نفسه عميقاً وقاتماً.. كقلبها تماماً.

يا الله... أكثير عليها أن تتمنى السعادة؟ هل كانت غبية حين أملت أن تحققها؟

لم يكن لديها فكرة كم من الوقت ظلت واقفة هناك... أنباها إحساس داخلي بوجود أرماندو أكثر من أي صوت.

ـ ماذا تفعلين هنا؟

كان صوته عميقاً وجافاً، فلم تستطع منع الرجفة التي غزت جسمها النحيل. أمسكت يداه بكتفيها، ثم انسلتا إلى ذراعيها فمرفقيها، لتحيطا بعد ذلك بخصرها لتجذباها إليه. قال لها بصوت خفيض:

ـ ستصابين بالبرد.

ولكنني أشعر بالبرد... أشعر بالبرد حتى أكاد أشعر أن ثلجاً يسري في عروقي بدل الدم. ولن أشعر ما دمت حية

بالدفء ثانية!

ـ عودي إلى النوم.

صاح صوت صامت في داخلها: لا!.. هذا الصوت صوت عقلها الباطني الذي راحت تخوض معه معارك كثيرة خاسرة... آلمت الدموع عينيها، وغشيت الظلمة عينيها ثم انحدرت دمعتان كبيرتان كحبتي كريستال، فأخفضت أهدابها...

ـ إليان؟

أدارتها بداء بلطف لتواجهه، وهي عاجزة عن تجنب أصابعه التي أمسكت ذقنها لترفعه إلى الأعلى.

أطلقت هذه الحركة دموعها، فلم يكن باستطاعتها فعل ما يحول دون تساقطها البطيء.

من الصعب ألا ينتبه إلى الدموع، والأصعب ألا يعلق على سبب انهمارها.

نظرت إليه، ورأسها مرتفع باعتذار، والتحدي بارز بحدة. كانت قسماته بادية من خلال دموعها التي رفضت أن تتوقف.

لقد علقت في المصيدة... وكانت تشعر بحزن عميق لأنها رُبطت داخل نسيج عنكبوتي حريري تمسكها خيوطه لتتركها سجينة نفسها.

ـ دموع؟

لم تظهر عليه سيماء السعادة بل حزن عميق خافت أن تحلله.

مرر إصبعه فوق دموعها.

ـ لماذا؟

لأجل كل الأحلام.. ولأجل الحب الذي عليّ تقديمه ومنحه.

ـ إليان؟

صوته ناعم مخملي، أنفاسه حارة تلفح خدها، شفتاه دافئتان تلمسان صدغها وأجفانها...

إنه الإغواء في أخطر صوره. كادت تصرخ وهو يحملها ليعود بها إلى غرفة النوم. وما أوقفها عن الصراخ الخيانة التي شعرت أن جسدها يقوم بها. ولكن الإغواء الخالي من الالتزام العاطفي ما عاد يكفي، بل ما عادت قادرة على الادعاء.

أنزلها بلطف لتقف على قدميها.

ـ والآن.. هل تخبرينني ماذا يزعجك؟

من أين تبدأ؟ من الاعتراف بوقوعها في حبه؟ سرت رعشة هزت كيانها لأنها فكرت في السخرية التي ستطل من عينيه عندما يعرف أنها انضمت إلى النساء اللواتي وقعن ضحية سحره الفتاك.

ـ أخشى أن ألحّ في السؤال.

في صوته قسوة ما لم تستطع فهمها، قسوة أرسلت جفونها إلى الأعلى بدهشة... كانت تحس به يراقب مشاعرها المهتزة، فأجبرت نفسها على التنفس بثبات للسيطرة على دقات قلبها العميقة.

قال أرماندو بلطف، وقد رفع يديه ليمسك بوجهها:

- أرجوك.

هناك شيء ما لم تجرؤ على تصديقه، ربما هو الأمل وقد طفق يتحرك في داخلها فقالت «لا أظن أنني أستطيع».

- حاولي...

هل تجرؤ؟ ولكن إن بدأت بالقول فهل يكتفي بالقدر الذي ستذكره أم يطلب منها المزيد... والمزيد...

قالت أخيراً وهي غير واثقة من شجاعتها:

- يستحق جوزف أن تكون والده.

سوّد شيء ما عينيه أقسمت إنه الألم.

ران صمت مطبق قطعه أرماندو بهدوء مخيف خطر:

- وماذا عنك؟ أترين أنه لا يستحق أن تكوني أمه؟

شعرت وكأنها تمشي على البيض، ولكن بما أنها بدأت فليس أمامها إلا المضي في الكلام. فانفجرت قائلة:

- أنا أحبه... كيف تشك في ذلك؟

- ليس حبك له بمعرض سؤال.

انقطعت أنفاسها ثم انفجرت في وقت شحبت فيه قسماتها، فترنحت وخشيت الوقوع. فكرة أن يعرف أرماندو إلى أي حد بلغت عاطفتها، أشعرتها بالمرض. عليها الابتعاد عنه حتى ولو مؤقتاً. قالت له متوسلة:

- أرجوك... دعني أذهب.

- أبداً.

ظهرت الصلابة واضحة في كلامه فخافت:

- ستعيد التفكير ثانية عندما تعرف أن السبب الوحيد لقبولي الزواج بك هو أن أطلب الطلاق وحق حضانة جوزف القانونية... كنت أخطط منذ البدء للانتقام النهائي.

ثم راحت تكافح بحثاً عن الكلمات المناسبة لأنها ما عادت تستطيع عند هذا الحد الامتناع عن الاعتراف.

- سنتين... ظننت أن عليّ البقاء متزوجة قبل أن أعود مع جوزف إلى إنكلترا.

كان صمته يضعفها فتاقت إلى أن تسمع كلمة... أية كلمة.

- والآن؟

- ماذا تريدني أن أقول؟

- حاولي... الحقيقة.

كانت روحها تبكي منهوكة القوى بدموعها الصامتة.

- متى تنتقم مني يا أرماندو؟

- هل هذا ما تفكرين فيه؟

- أوه.. لماذا تجيب عن كل سؤال بسؤال آخر؟

- لأنني أريد الحقيقة كلها.

من العبكر أن تعرّي روحها أمامه! نعم من العبكر جداً... فالمفترض أن يحدث الحب بالتدريج لا على حين غرة. وكيف لها أن تعرف ما إذا كان هذا هو الحب الحقيقي؟

- لا أستطيع...

صمت أرماندو طويلاً حتى أحست بالخوف، وعندما تكلم كان صوته متوتراً بتصميم هادىء:

ـ حالما تعود روندا ورافاييل إلى الجزيرة تتوجه إلى روما جواً.

صدرت عن شفتيها شهقة دهشة، فضغط بأصبعه عليهما لمنع كلمات الاحتجاج.

ـ سيسر أهلي الاعتناء بجوزف وحدهما فترة قصيرة.

ـ هل ترتب الأمور دائماً، وليد ساعتها؟

ـ وهل تقولين إنك غير راغبة في الذهاب؟

وقفت مترددة هنيهة لا زمن لها، ثم همست أخيراً «لا».

ولكنها كانت تشعر دون أي شك أن قدرها قد أبحر دون أمل بالعودة.

• • •

١١ ـ أرجوك أحبني

كان للأيام التالية طعم الأحلام.. ففيها لطف ظاهر، وإحساس بتوقعات سرية تغلفها لمسة يد.

قبلا بعض دعوات قليلة. مع أن إليان كانت عندما يخرجان تحس بالنظرات الصريحة غير الخفية، وبالهمس الذي كان يسري لأن أرماندو كاد لا يتركها تغيب عن ناظريه لحظة واحدة. أما في المنزل فكانت تُنعم نفسها بالسعادة كلما أعدّت العشاء الذي كانا يتناولانه على ضوء الشموع أو كلما راحت تتحدث معه حديثاً مطولاً عن أي شيء وكل شيء.

بعد يومين من عودة روندا ورفاييل من لوس أنجلوس، طار أرماندو وإليان إلى روما حيث أمضيا يومين في تلك المدينة القديمة قبل أن يستقلا طائرة هليوكبتر إلى جزيرة نائية صغيرة هي أشبه بجوهرة متوهجة وسط بحر زمردي شفاف على ساحل صقلية.

في الجزيرة حقول الكرمة، وأشجار البرتقال وبساتين الزيتون، وفيها بضع عنزات وكلب يرعاها بحب وعناية زوجين عجوزين استقبلا أرماندو بشغف ظاهر قبل أن يركبا في

الهليوكبتر بنفسها لتقلهما إلى جزيرة أخرى لزيارة بعض الأقرباء.

تنهدت إليان عندما كان أرماندو يقودها إلى منزل أبيض قديم مكسوّ بالجصّ، يقع على هضبة.

كانت الغرف موزعة حول باحة كبيرة واسعة مليئة بالأثاث الأثري وبالسجاد العجمي الثمين الذي يغطي الأرض المصقولة، وفي غرفة الجلوس أرائك مريحة...

قال لها أرماندو:

ـ كنت أمضي في طفولتي معظم عطلاتي في هذا المنزل.

ـ وهل عدت إلى الجزيرة بعدما هجرتها؟

ـ عدة مرات.

التفتت إليه تتأمل قوته الموروثة، وجاذبيته الفتاكة فتذكرت عدد النساء اللاتي كنّ جزءاً من حياته وغشيت ظلال سوداء بصرها.

ـ كنت أعود لأنضم إلى رونداً ورافاييل وجوزيبو. إذ كانت هذه الجزيرة ملاذ العائلة الدافىء.

رسمت ابتسامة بارقة أخفت بعض الألم.

ـ الطقس دافىء.. هل نسبح قبل العشاء؟

وصمت لحظة قصيرة، ثم تقدم منها وأمسك يدها.

ـ ولماذا لا؟.

كانت المياه صافية كالبلور، فتحدت إليان أرماندو للتسابق في عرض الخليج الصغير، فقبل التحدّي ثم تركها تربح عن

قصد ضاحكاً، أخذت قبضة من الماء ورمتها على صدره، فلما حاول جذبها إلى ذراعيه حاولت الهرب، فقاومته هنيهة ولاعبته أخرى ثم لم تلبث أن استكانت بين ذراعيه وقد اعتلى وجهها سمة من الجدية.

ثمة أمور عديدة تريد قولها وكلمات غير قليلة تود سماعها، ولكنها كانت خائفة من البدء.

بدا توتر خفيف تحت سطح سيطرة أرماندو على أعصابه، فنظرت إليه بصمت وهي تتذكر حبه وحنانه وعاطفته...

لقد تعبت من المقاومة، وفقدت الاهتمام بكبريائها العنيدة. قالت تهمس بصوت أجش:

ـ أرجوك ساعدني.

رفع يده إلى شفتيها، ومرر إصبعه على شفتها السفلى:

ـ لماذا لا تبدئين من البداية؟

ارتجف فمها وقد ترددت أمام لحظة الحقيقة... إن كان يتسلى باعترافها فسيكون الأمر رهيباً.

شرعت في الكلام، وعيناها تتوسلانه بصمت أن يفهم:

ـ كنت تمثل كل ما أكرهه في رجل. فأنت لا تطاق، متطلب، وواثق جداً من نفسك. أقنعتُ نفسي لأنني علقت في دوامة مشاعري التي استطعت إثارتها في أعماقي. لم أشأ ما شعرت به، وكان عليّ أن أقاوم بقوة لئلا أقع في حبك... ولكنها لم تكن معركة رابحة، لأنني خسرت أي خسارة.

تنهد تنهيدة عميقة أزالت توتره كله ثم ضمّها إلى صدره

وعانقها بلطف وعاطفة واحترام حتى عجزت عن الحراك. قال بهدوء:

ـ أعيدي الكلمة الأخيرة ثانية...

همست وعيناها ترقرقان دمعاً وشفتاها ترتجفان شوقاً: «أحبك».

ـ لقد بدأت أيأس من اعترافك.

ضمّها ثانية بقوة وكأنه لا يريد أن يتركها أبداً.

ابتسم ابتسامة فيها امتياء لم يحاول إخفاءه:

ـ ألم تحسي بما أنزلته بي؟ لقد سافرت إلى لندن وليس في ذهني إلا الحصول على جوزف مهما كلّف الأمر. ولكنني وجدتك تحملين الطفل بشراسة. الطفل الذي أقسمت أن أتبناه كولدي. ثم رفضت التخلي عنه وأنا الذي كنت أظن أنك ستكونين راضية بتسليمي إياه لتتابعي مشوار حياتك الخاصة.. ولم يكن هناك امرأة أعرفها تستطيع أن تلعب دور الأمومة ليتيم صغير. وعندما واجهتني بعدائك الحاد أردتك زوجة لأروّض كبرياءك الرائعة، ولكنني لم أفكر لحظة في أن مشاعري ستورط معك.

كان في ابتسامته دفء غريب أشعرها بالوهن.

ـ لقد كنت شعلة من نار تقفين في وجهي عند كل منعطف. ومع ذلك أحببت روندا ووالدي، وعاملتِ أصدقائي بلطف، ولم أجد إلا نفسي تعتمد تحطيم دفاعاتك.

توقف وعاد يضمها إليه مطولاً حتى أحست بعظامها تنصهر حباً. ثم راح يشدّها ويشدّها، ولكنها كانت تقف دون حراك، ترقب، تنتظر، تريد بيأس أن يقول الكلمة التي تتوق إلى سماعها.

ـ أردت في بعض الأوقات قتلك لأنك عمياء... أحبك... أحبك...

وشدد على تأكيد كلامه بأن هزّها بلطف.

فرض الفرح نفسه عليها وعندما راح يسري بسرعة البرق في عروقها، مدت يديها لتطوقا عنقه وضغطت وجنتها على كتفه، فأنزل يده تحت ركبتيها وحملها بين ذراعيه فهمست:

ـ إلى أين تأخذني؟

ـ إلى الداخل...

انسلت ضحكة ناعمة من ثغرها حينما حملها إلى غرفة النوم، وبرقت عيناها بوعد خبيث لم تستطع مقاومته، فقالت محتجة:

ـ ولكنني لست تعبة، ولا أريد النوم.

رفع يده ليردّ بنعومة فائقة خصلة من خصلات شعرها عن وجهها ثم ابتسم ابتسامة دافئة ومغرية، ووقفت تحدق إلى قسماته الحبيبة، والعاطفة تظهر جلية في عمق عينيه.

ودون أن تضيف كلمة، مدت يديها تجذب رأسه إليها

وتضع خدها على خده، فزغردت أحاسيسها حتى تكاد تنفجر فرحاً...

- أرجوك أحبني...

- سأحبك إلى الأبد.

* * *

www.hilas.com

samra